نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار الإصالة

دار الأصالة

دار الأصالة

رقم الإصدار الترقيم الدولي
279
978-625-6250-69-7

اسم الكتاب
اسم المؤلف
نبي الله يونس عليه السلام
د. علي محمَّد محمَّد الصلَّابي

رئيس التحرير
رجب صونگول

الاخراج الفني
AsaletAjans
ajans@asaletyayinlari.com.tr

الطبعة
الأولى – مارس 2025 م / رمضان 1446 هـ

İmak Ofset Basım Yay. A.Ş.
Sertifika No: 71320
Akçaburgaz Mah. 137. Sk.
No: 12 Esenyurt/İSTANBUL

دار النشر
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصّتي
Google Play Books
amazonkindle

Copyright © 2025
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2025
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

نبي الله يونس عليه السلام

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار الأصالة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بقلم: أ. د. عقيل حسين عقيل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أقدم للقراء والنقّاد الكرام كتاب الشيخ الدكتور علي محمَّد محمَّد الصّلابي عن نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إذ بدأ الدكتور الصّلابي مؤلّفه كعادته بأسلوبه المتميّز، والسَلس، والمريح، واللين، كليونة الماء بين اليدين، فلا يشعر القارئ بثقل المعلومات، بل يجد نفسه يتنقّل بين صفحات الكتاب بسلاسة، مستمتعًا بعمق التحليل، ورقّة الأسلوب، ودقّة الطّرح.

لقد حرص المؤلف على أن يكون التَّاريخ حيًّا في ذهن القارئ، فلم يقتصر على السّرد، بل أضفى على النّصوص روحًا من التأمّل والتدبّر؛ حيث تتداخل المعاني العميقة مع التحليل الرّصين؛ فتضيء أمام القارئ مسارات جديدة لفهم سيرة النّبي يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

إنَّ ما يميّز هذا الكتاب هو أنَّ المؤلِّفَ لم يكتفِ بجمع الرّوايات، بل عرضها بروح الباحث المتقصّي، الذي يحقّق، وينقّح، ويوازن بين الرّوايات المختلفة، ليصل إلى أكثرها دقّة وصحة، مستشهدًا بالقرآن الكريم، والسنة النبويَّة الكريمة، وأقوال العلماء الثقات.

وبأسلوبه المرن، ومنهجه التحليلي العميق، تمكّن من تقديم رؤية وافية لقصّة النّبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بما فيها من معجزات وعبر، وكيف يمكن للقارئ أن يستلهم منها في حياته اليوميَّة.

وإنَّ هذا الكتاب رحلة روحيّة تأخذ القارئ في أعماق القصّة، ليعيش مع نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويتعلّم من تجربته كيف يكون الصّبر عند البلاء، والتوبة عند الزلل، والتوكّل على الله عند الشدائد، وكيف أنَّ رحمة الله دائمًا أقرب مما يتصوّر العبد.

ولقد تمكّن الدكتور علي الصّلابي من الوقوف على بعض المغالطات التي أحاطت بسيرة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فلم يمرّ عليها مرور الكرام، بل تصدّى لها ببحثٍ عميقٍ وتحليلٍ دقيق، فقام بتصويبها وتصحيحها وفق ميزان العلم والنّقل الصّحيح.

ولذا فلم يكن جهده مقتصرًا على جمع الرّوايات فحسب، بل كان محقّقًا ومدقّقًا، ومتفحّصًا للحجج، ومستشهدًا بالأدلة القاطعة، ومنسِبًا كلّ قول إلى أهله، ومعتمدًا في ذلك على القرآن الكريم والسنّة النبويَّة الكريمة. وقد أضاف إلى ذلك تحليله الخاصّ المبني على فهم دقيقٍ للآيات الكريمة، ليكشف عن السّند الحقيقي والحقائق الرّاسخة التي تبني تصوّرًا تامًّا لسيرة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولقد كُتب الكثير عن نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن ما يميّز هذا الكتاب هو قدرة مؤلِّفه على الجمع بين الدّقة الموضوعيَّة والوضوح المنهجي، وبين التحليل التَّاريخي والعمق الإيماني؛ بحيث لا يكون الكتاب مجرّد استعراض لحياة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل دراسة معمّقة تكشف عن سُنن الله في الابتلاء والتمكين، وعن دروس الصّبر والتوبة، وعن معنى اليقين والثِّقة بالله حتى في أحلك اللحظات.

ويأخذنا الدكتور الصّلابي في رحلة تبدأ من نشأة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وظروف دعوته، ورفض قومه لها، ثم انتقاله إلى محنته العظيمة حين التقمه الحوت، وما في ذلك من دروس إيمانيّة خالدة، وصولًا إلى نجاته وإكماله لمسيرة الدّعوة. ويعرض لنا هذا كلّه وفق رؤية تجمع بين النّصوص الشرعيَّة، والتحليل التَّاريخي، والاستنتاجات العميقة التي تُثري الفكر، وتُحفّز القارئ على التأمّل في معاني القصّة.

وإنَّ هذا الكتاب هو دعوة للتدبّر، وتأمّل أقدار الله في خلقه، ورؤية كيف أنَّ الابتلاءات قد تكون بوابة للنّصر والتمكين، وكيف أنَّ اليأس قد يتحوّل إلى أمل متجدّد إذا ما استمسك الإنسان بحبل الله المتين؛ فالنّبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، في لحظته الحالكة في أثناء التقام الحوت إليه، لم يكن نبيًّا منسيًّا أو متروكًا، بل كان في عين العناية الإلهيَّة؛ ليدرك بعد ذلك أنَّ الفرج قد يأتي حين تنقطع كل الأسباب، وأنَّ نور الرّحمة قد ينبثق من قلب الظّلمات.

فهذه من جواهر هذا الكتاب، وهذه هي رسالته العميقة، التي تمكّن الدكتور علي الصّلابي في تقديمها بأسلوبه المتميّز، ومنهجه القائم على تحليل المعلومة بالمعلومة، ونقد الرواية بالرواية، وإثبات الحقيقة بالحجّة والبرهان؛ وهو بذلك يقدّم للقارئ كتابًا لا يُقرأ لمجرد المعرفة، بل للتدبّر والتأمّل، ولإعادة النظر في فهمنا للنبوّة، وللابتلاء، وللرحمة الإلهيّة التي تسري في كلِّ تفاصيل الحياة.

لم يكتف المؤلِّف بسرد سيرة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل يُحلّق بالقارئ في رحاب آياتٍ كريمة، ويلفت الانتباه إلى مضامينها العميقة، ثم ينقله برفق إلى أهميّة العمل بمقتضياتها، والتفاعل مع دلالاتها، وتجسيدها في الواقع؛ فهو لا يقتصر

على تقديم المعلومة، بل يسعى إلى تفعيلها في وجدان القارئ، مما يجعل الكتاب رؤية متماسكة لفهم الرّسالة الإلهيَّة ومقاصدها الكبرى.

وعليه: فإنَّ هذا المؤلّف يبرز أهميَّة الاقتداء بسنن الرُّسُل في أثناء الدعوة إلى التوحيد، مؤكّدًا أنَّ الدّعوة تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، وأنَّه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. فكما واجه نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تحدّياتٍ في دعوته، فإنَّ كل داعية إلى الحقّ سيجد أمامه اختباراتٍ للصّبر والثبات والإخلاص لتكون النتيجة من بعدها في مرضاة الله سدادًا وتوفيقًا.

لقد جاء هذا الكتاب يجمع بين التحليل والاستنتاج، وبين التأصيل العلمي والاستشهاد القرآني، مما يجعله تجربةً تُنير الصدور، وتُحفّز العقول، وتُرشد الباحثين إلى ما يأملون؛ فمن خلال تتبّع رحلة نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نكتشف كيف تتجلّى السّنن الإلهيَّة في النصر بعد الابتلاء، وكيف يكون اليقين بالله نورًا يبدد ظلمات الشّك والظنون.

لم يغفل الأستاذ الدكتور الصّلابي في مؤلّفه الزاخر عن إبراز الأهميَّة العظيمة الرّابطة بين (بسم الله) التي افتتح بها كتابه، و(الحمد لله) التي اختتم بها، فجعل من البداية والنهاية مفتاحًا لفهم السُّنن الإلهيَّة ومسار الدّعوة إلى التوحيد. فـ(بسم الله) هي فاتحة السُّبل، وهي التي بها يبدأ كل عمل، توكّلًا واستعانةً وتسليمًا للمشيئة الإلهيَّة، أمَّا (الحمد لله)، فهي بابٌ مفتوحٌ لمن يُدرك أنّ كل شيء يعود إليه تعالى، وأنَّه هو الغاية والمبتدأ، والمنعم المستحق للحمد والشكر في كلّ الأحوال.

هذا الترابط العميق بين البداية والنّهاية ليس مجرّد تفصيل لغوي أو أسلوب بلاغي، بل هو مدلول عقدي عظيم يرسّخه الصّلابي في كتابه، ليبيّن أنَّ رحلة نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما هي حال كل الأنبياء، كانت رحلة تبدأ بالتوكّل وتنتهي

بالتسليم التام لحكمة الله؛ ومن هنا يُبرز المؤلف كيف أنَّ هذه العلاقة بين الاستعانة بالله في البداية، والحمد له في الختام، هي جوهر التوحيد والإيمان الرّاسخ الذي لا تزلزله الابتلاءات ولا تغيّره الظروف والأحوال.

ما أجمل وأعظم صفات يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ذلك النّبي الكريم الذي جسّد في سيرته أروع معاني الصّبر، والتوكّل، والتوبة، والرجوع إلى الله؛ فقد كان مثالًا للعابد الخاشع، والدّاعي إلى الحقّ، والمتضرّع في الشّدائد؛ فعندما وقع في البلاء العظيم، لم يكن له ملجأ إلَّا الله، فأنجاه بإيمانه الصّادق ودعائه الخالد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الكتاب دراسة تفسيريَّة، ورسالة من صفاء نفس، تدعو إلى التأمّل في الصّفات النبيلة، والعمل بها، والاقتداء بأنبياء الله في صبرهم وثباتهم وتوكّلهم، ليكون القارئ أكثر وعيًا بحكمة الله في خلقه، وأكثر قربًا من نوره وهدايته.

ولقد أبرز الدكتور علي محمد الصّلابي هذه الحقيقة من خلال تحليله العميق لقصّة النبي يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يكتفِ بالسّرد التقليدي، بل بحث في الألفاظ، واستنطق النّصوص، واستخلص منها معاني تتجاوز حدود الزّمن، ليبيّن كيف أنَّ القرآن الكريم يحمل في مضامينه ومفاهيمه وحِكمه معاني لا تفنى، وإشارات تحتاج إلى مزيد من التدبّر عبر العصور.

أ. د. عقيل حسين عقيل

١٦/ ٢/ ٢٠٢٥م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بقلم: عبد الحي يوسف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فإن الله تعالى قد ساق لنا في القرآن قَصَصاً من أخبار الأولين وأنباء الغابرين؛ لنتعظ بها ونعتبر، وقد وصفها سبحانه بأنها أحسن القصص فقال ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وأخبر بأنها الحق الذي لا ريب فيه فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وبيَّن سبحانه أن تلك القصص مسوقة لتحقيق ثلاث غايات:

أولها: الاعتبار ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثانيها: التفكُّر ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثالثها: تثبيت الفؤاد ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

وما أعظمَ الحاجةَ لتلك القَصَص في زمان عظمت فيه الفتن، وضاقت بالناس السبل، وتفرقت بهم الأهواء، وصار كل ذي رأي معجباً برأيه متشبثاً به، وفَقَدَ أكثر الناس القدوة والأسوة، فجاءت هذه السلسلة للحديث عن أولئك القدوات العظام

من أمثال (النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) و (الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ) وغيرها لتردَّ الناس إلى الجادَّة، وترشدهم إلى الطريق الأقوم والسبيل الأرشد، بدلاً من التيه الذي عمّ، والتردد في بُنَيَّات الطريق والتماس الهدى من غير المهديين.

وقد فاض مداد شيخنا الموفَّق المسدَّد الدكتور علي بن محمد الصلابي ذي القلم السيال والفكر الوقاد والإنتاج الوفير -وفقه الله تعالى- لتجلية الحقائق وتبيين المقاصد من دعوة نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فكانت تلك المباحث العقدية والدعوية والسلوكية المنثورة في ثنايا هذا الكتاب تمثل زاداً لكل من يروم أن يدعو إلى الله تعالى على بصيرة، ومناراً للسالكين في هذا الدرب الطويل.

أسأل الله تعالى أن يجزيه خيراً، وأن يوفقه لكل خير، وأن يجري على يديه الخير، وأن يجعله مباركاً أينما كان، وينفع به البلاد والعباد، ويرزقنا وإياه الإخلاص والسداد.

والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله وسلم وبارك على خير الأنام، وعلى آله وصحابته الأعلام.

عبد الحي يوسف
٢٤/ شعبان/ ١٤٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

بقلم: أ.د. فضل بن عبد الله مراد

مع الصلابي ... مسير حتى السحر ...

رجعت وقد كاد الليل أن يلج في ثلثه الثاني.

وكنت في دورة علمية مكثفة طويلة لنخبة من علماء المسلمين في فقه المصارف الإسلامية.

لقد قررت أن أقرأ كتاب صديقي مؤرخ الإسلام العلامة علي محمد محمد الصلابي. عن يونس بن متىّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم ينعس لي جفن حتى أنهيته سحرا رغم التعب.

لكن آثرته مع ذلك لتجربة لي مع كتب الشيخ التي قربت قصة الحضارة الإنسانية وقادتها الأنبياء والمرسلين، وأعادت عرضها بشكل تجديدي، في عصر تهرع اللوبيهات الشيطانية إلى صناعة قيادات وقدوات لتقديمها للأجيال قدوة وأسوة. ومقصودهم من تسويق هذه المصنوعات الكرتونية من القيادات إضلال الجيل والشباب وتدمير الأسرة والمجتمع.

لهذا خلد القرآن أعظم القيادات وأجل الشخصيات التي اختارها الله تعالى في النص القرآني وقدمها للعالم.

والمقصد الشرعي من هذا أن نتخذها معلما للقيادة والأسوة والمثل الأعلى للأخلاق والفضيلة والصبر والإيمان والإصلاح في الأرض.

إن أعظم طرق النهوض الحضاري بالأمة تتمثل في الكشف عن قادة الحضارة الإنسانية المصطفين الأخيار؛ حياتهم دعوتهم أخلاقهم إيمانهم استثمارهم وفهم لسنن الله علاقتهم مع الله وخلقه عمارتهم وإصلاحهم الأرض.

لقد ذكرها الله سبحانه لنا في القرآن الخالد الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لنعلم بها العالم ونوجه بها الأمم ونفتح بها القلوب ونجادل بهداها وحواراتها المبطلين، فمن أراد منطق المناظرة والحوار وفنونه فهذا هو، ومن أراد الشخصيات القيادية التي نهضت بالعالم وأنقذت البشرية فهؤلاء هم، من رام الأخلاق والقيم وفلسفتها فهي هنا، من قصد فهم الحياة وسننها بعمق وبصيرة ليستثمرها في الاستخلاف فهذا هو المهيع الوحيد والحصري فقط.

لقد خدم شيخنا علي الصلابي هذا الجانب وسد هذا الفراغ في هذا الكتاب وأخوته في الموسوعة ...

وفي سفراتي التي أدعى لها من أماكن شتى في العالم لدورات علمية مكثفة ألفيت هذه الموسوعة هنا وهناك. إما تدرس أو تقرأ بالعربية أو مترجمة، سواء في حلقات الدعوة والعلم أو التلفاز أو وسائل الاعلام. إن هذا وربي هو التوفيق والسداد من عند الله، أن تبذر بذرة لله ثم تتركها لله يتولاها، ولأنك بذرتها لله خالصة فإن من أخلصت له وقصدته العالم بسريرتك هو من يتولى تلك البذرة، فتكون كما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

اترك ما علمته لله وحده، لا تنتظر ثناء الناس ولا جزاءهم ولا تبتغ منهم شكورا، هنا يتولد التأثير ويتكاثر ويتضاعف مسحًا وعمقًا.

حين تقرأ كتاب الشيخ في يونس ابن متىّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتتنقل في أفيائه الباذخة.. تجد سلاسة الكلمة وعمقها في نفس الوقت. وجمع هذه الأمور ليس سهلا على الكاتب، إنما هو توفيق الله وما وهب لعبده في ذلك.

لقد تواصل بي الشيخ علي وهو يكتب هذا الكتاب وحدثني عن عظمة التسبيح وما فيه من الأسرار، وها أنا أقف على أسراره في جنبات هذا النص المحرر.

لقد حملني ما قرأت في هذا السفر من أسفار الشيخ أن أعيد النظر والتأمل في قصة يونس، وأنظر من خلال الكتاب وتحليله للنص من أبعاد وزوايا مختلفة، فظهر من الفوائد والاستنباطات من خلال القراءة التحليلية لما ساقه الشيخ من الدلالات اللغوية والتفسيرية فمنها:

– أن قصة يونس تتلخص في عظمة الدعاء وفي خصوصية ذلك الدعاء الذي دعا به، وفي قدرة الله المطلقة الذي يقول للشيء كن فيكون.

– وفيه: أنّ على المؤمن أن يذكر الله على كل أحواله وظروفه وخلواته وجلواته وأزماته وحياته كلها.

– وفيه: ملازمة الصلاة والتسبيح على قدر وسعه في التكليف سواء كان المكان معدًّا للصلاة أم لا، كان عاديًا أم اضطراريًا، فيه ماء لوضوء أم لا، علم القبلة أم لا. وكانت هذه حال يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

– وفيه: عظيم قدر الصلاة والتسبيح فقد أخرج الله بها يونس من أخطر سجن بحري متنقل، لا يقدر عليه أحد، ويستحيل أن يعيش فيه أحد لولا لطف الله به. وقد أطنب الشيخ في موضعه في الكتاب في ذلك.

– وفيه: أثر العمل الصالح في النجاة حتى ولو كان الشخص من الأنبياء المرسلين فالعمل الصالح الخاص مطلوب لدفع المصائب والخروج من الأزمات والمحن.

- وفيه: عظمة الدعاء بدعاء ذي النون.

- وفيه: أن لكل داهية مقامًا خاصًا من دعاء خاص لدفعها فليس كل دعاء يؤثر في دفع كل المصيبة المعينة بل دعاء مخصوص.

- وفيه: قدرة الله المطلقة في التصرف في الكون ومخلوقاته برًا وبحرًا فكلها تسير وفق أمره.

- وفيه: أن المكلف لا يترك الدعوة لعدم حصول الأثر لأن الأثر على الله وما عليه إلا البلاغ المبين.

- وفيه: عدم جواز اليأس من لطف الله ورحمته، ولو كنت في بطن حوت مفترس لا نجاة منه عادة، فضلا أن تكون في سجن أو شدة مما جرت به الحياة.

- وفيه: لزوم الدعاء حتى مع انعدام الأسباب إلى مستوى المعادلة الصفرية والاستحالة الظاهرة. فمن في بطن حوت كيف ينجو ومع ذلك لزم يونس الدعاء والصلاة والتسبيح، ودعا زكريا ربه وقد وهن عظمه وعقرت وعجزت امرأته ولا تلد عادة في هذا السن، ومع ذلك لزم الدعاء بالولد في سن يمتنع عادة، لكن الله لا يعجزه شيء.

- وفيه: أن سلسلة النسب لا قيمة لها، فهذا النبي لا نعرف آباءه، ولا أحد الآن يعلم ذلك. كما حقق ذلك الشيخ في نسبه في هذا الكتاب، وذكر أنهم اختلفوا كثيرا في ذلك. لهذا إنما يقال له يونس ابن متى. فالأنساب ليست من القيم الاعتبارية عند الله بل الأعمال.

- وفيه: جواز أن يلقب الإنسان بما يعرف به ومنه لقب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ذو النون -أي الحوت العظيم وصاحب الحوت-.

- وفيه: أن الغم يصيب حتى الأنبياء فينجيهم الله منه بالدعاء.

– وفيه: أن السجن غم، فكيف به وهو في بطن حوت في ظلمات المحيط؟! وقد جمعت هذه الغموم ليونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى بلغ حد الكظيم وهي شدة الغم وكثرته.

– وفيه: سرعة استجابة الله لدعائه إذ عقبها بالفاء فاستجبنا له فهو دليل على عظمة ما دعا وعلى عظيم لطف الله وامتنانه.

– وفيه: أن الله ينجي المؤمنين بشيئين: بدعائهم وإيمانهم. والإشارة في كذلك ننجي المؤمنين؛ أي بالدعاء الخاص من المؤمن.

وعلى كل حال ففوائد القصة كثيرة، مَن أرادها فعليه بهذا المورد العذب الزلال، مع تأمّل وتفكّر وتمعّن تزيده هدايةً وفتوحًا.

أ.د. فضل بن عبد الله مراد
الأمين العام المساعد للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين
٢٣ / شعبان/ ١٤٤٦

الإهداء

إلى كلّ إنسان يريد معرفة سيرة نبيّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورتها الناصعة الصادقة الشفّافة البعيدة عن الأكاذيب والخرافات والموضوعات.

إلى الذين يُقدّرون قصص العظماء والسادة الكبار من النبيّين والمرسلين الأطهار.

إلى الذين يلتمسون طريق الهداية الربّانية، ويسعون إلى الخروج من الظلمات ما ظهر منها وما بطن، إلى نور التوحيد وضياء العبادة.

إلى المتلهّفين إلى مناجاة الله بالتسبيح والذكر، والتضرّع والدعاء والانكسار بين يديه شوقاً لفرجه، ورحمته، ونعمائه، وألطافه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

وأمّا بعد:

هذا الكتاب نبيّ الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] من ضمن سلسلة قادة الحضارة الإنسانية وسادتها العظام الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وهذه حلقة مهمّة في تاريخ عَلم من أعلام الإنسانيّة، وشخصيّة عظيمة أكرمها الله بالنبوّة والرسالة، وخلّدها في كتابه العزيز كقدوة وأسوة لبني الإنسان أينما كان، إذ كان من السالكين لطريق

الهدى والتقوى والإيمان، وإن اِعتراهم الضعف البشري المعتاد من التقصير والذنوب والخطايا، يتعلّمون من سيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كيفيّة الاستغاثة والدعاء والتضرّع لربّ العالمين، والرجوع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا الكتاب يُسلّط الأضواء على أهمّ المحطّات التاريخيّة التي مرّ بها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كما جاءت في القرآن الكريم، ويدخل في سلسلة الأنبياء والمرسلين التي صدر منها:

- النبيّ الوزير يوسف الصدّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.
- الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهيكل سليمان المزعوم.
- لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه الظالمين وعقاب الله لهم.
- هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوال حضارة عاد.
- نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.
- أيّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ طريق الشفاء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وهذا الكتاب: نبيّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وهذا الكتاب يجمع ما قاله المفسّرون والمؤرّخون عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويستعين بالله عَزَّوَجَلَّ في معرفة الحقيقة والاستفادة من آراء العلماء في الماضي والحاضر مع الوقوف بحزم وعلم وعدل ضدّ الروايات الموضوعة، والخزعبلات والأكاذيب والأباطيل التي لا تليق بمقام النبوّة والرسالة.

فالقصص القرآني له علاقة مباشرة بالذاكرة الإنسانيّة، وبأهمّ محطّاتها الملهمة في تاريخها الطويل، فالوقوف عليها تدبّراً وتأمّلاً وتفكّراً، ممّا يعين المسلم على السير على الصراط المستقيم، والتواصل مع هذا الركب الميمون روحيّاً وأخلاقيّاً وعقائديّاً، كما أنّه فيه العلاج والفرج، والمخارج من الابتلاءات والمحن والمصائب والكوارث والغموم والهموم.

وإنّ قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي جاءت في القرآن الكريم مليئة بالدروس والعبر والفوائد والعظات والسنن والقوانين، وتعطي الناس المنهج الصحيح في التعامل مع الابتلاءات والمحن والمصائب.

وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مقدّمة ومباحث وخلاصة:

المبحث الأوّل: ويشتمل على اسم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونسبه ومكان دعوته وماذا قالت كتب التاريخ عن ذلك، والسور التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والمبحث الثاني: يتحدّث عن قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الصافّات.

والمبحث الثالث: يتكلّم عن قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الأنبياء.

والمبحث الرابع: يتحدّث عن قصّة يونس في سورة يونس.

والمبحث الخامس: عن قصّة قوم يونس في سورة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وتحدّث الكتاب عن مولد يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونشأته وبعثته إلى أهل نينوى ودعوته لقومه، وعن حديث أسفار العهد القديم عن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعن تفسير الآيات التي تحدّثت عنه وفق علم التفسير الموضوعي، وتمّ جمع كلّ ما يتعلّق بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الذكر الحكيم وتوزيعها على مباحث.

وتحدّث الكتاب عن فضل كلمة لا إله إلّا الله، والتوافق بين (لا إله إلّا الله) و (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) وعن شروط (لا إله إلّا الله) وعن صيغة القرآن في التسبيح، وأفضل الكلام عند الله، وعن رفع البلاء بالدعاء، وأنّ القضاء يُردّ بالدعاء، وهل يسمّى الذكر دعاء؟

وعن حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متّى**»، وعن التفاضل بين الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وعن الأدب مع يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهل رأى قوم يونس العذاب عياناً؟ وعن سنّة الله في الإيمان، وعن أهمّ صفات وخصائص يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووفاته، من كونه رسولا، ومليما ومغاضبا، ومُبتلى، مساهما، وسقيما، وملتقما، ومُناديًا ربّه، وناجيًا من الغم، ومُجتبى، وصالحا، ومكظوما، ومُفضّلا، ومُبشّرا ومنذرا، وحجّة، ومنعَما عليه ومُستجاب الدعوة...إلخ، وفي نهاية الكتاب كانت الخلاصة.

وقد انتهيت من هذا الكتاب الساعة الثانية عشر وثمانية دقيقة من ليلة الجمعة المباركة، ٢٩ ذو الحجّة ١٤٤٥هـ، ٥ يوليو ٢٠٢٤م، بمدينة الدوحة عاصمة قطر حفظها الله وسائر بلاد المسلمين.

والحمد لله على فضله ومنّه، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتقبّل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يُكرمنا برفقة النبيّين الصدّيقين والشهداء والصالحين مع إخواني الذين ساعدوني على إتمام هذا الكتاب.

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلّا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرّئاً من حولي وقوّتي، ملتجئاً إليه في كلّ حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضّل،

وربّي الكريم وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلّى عنّي ووكلني إلى عقلي ونفسي لتلبّد منّي العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بصّرني بما يرضيك، واشرح صدري وجنّبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تُثيبني وإخوتي الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم.

ربّ اغفر لي ولوالديّ ولجميع المسلمين.

نرجو ممن يطّلع على هذا الكتاب ألّا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

والحمد لله ربّ العالمين.

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورضوانه،

د. علي محمّد محمّد الصلّابي.

الدوحة ٢٩ ذو الحجّة ١٤٤٥هـ/ ٥يوليو ٢٠٢٤م.

المبحث الأوّل

يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: اسمه ونسبه ومكان دعوته، وماذا قالت كتب التاريخ عن ذلك، والسور التي ذكر فيها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أوّلاً: اسمه ونسبه ومولده ونشأته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

ثانياً: السور التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

إن النبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ شخصية قرآنية عظيمة، جمعت سيرته بين الدعوة إلى الله والتجربة الإنسانية العميقة التي ألهمت الأجيال. يتناول هذا المبحث التعريف باسمه ونسبه وموقع دعوته الذي شكّل ميدان رسالته إلى قومه. وكما يسلّط الضوء على الروايات التاريخية التي تحدثت عنه، مما يمنحنا فهمًا أشمل لشخصيته. وبالإضافة إلى ذلك، يستعرض المبحث السور القرآنية التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث أضاء القرآن الكريم على مواقف محورية في رحلته الدعوية، لتكون عبرة خالدة للبشرية.

أوّلاً: اسمه ونسبه ومولده ونشأته:

١- اسمه ونسبه:

اختلف المؤرّخون في نسبه، واتّفقوا على اسمه فقالوا يونس بن متّى، وقالوا إنّه من بني إسرائيل، ويتّصل نسبه ببنيامين أحد أولاد إسرائيل (يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ)[١]، وهناك من المؤرّخين من قال إنّه من نسل يهوذا بن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

- وقال عماد الدين أبو الفداء: وقد قيل: إنّه من بني إسرائيل، وإنّه من سبط بنيامين[٣].

(١) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في ظل القرآن الكريم والسنة، عبد المحسن قاسم الحاج حمو، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في فرع الكتاب والسنة، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٨٠م، ص١٩، ساعدتني في الوصول والرجوع إلى مصادر مهمة في البحث.

(٢) منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، ياسين بن خير الله الخطيب العمري، مطبعة الهدف، الموصل، ط١، ١٩٥٥م، ص٩٢.

(٣) المختصر في أخبار البشر، عماد الدين إسماعيل ابن علي المعروف بأبي الفدا، دار المعارف، القاهر، مصر، ط١، ٢٠٠٨م، (١/ ٣٢).

– قال ابن خلدون: ويونس من الجرامقة من سبط بنيامين بن إسرائيل[١].

– قال القاضي مجير الدين الحنبلي: قيل إنّ يونس من بني إسرائيل، وإنّه من سبط بنيامين[٢].

– قال الشيخ الصابوني: ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من بني إسرائيل، ويتّصل نسبه ببنيامين أحد أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أخو يوسف الشقيق[٣].

– قال الأستاذ محمّد فريد وجدي: وقد قيل إنَّه من بني إسرائيل، وإنّه سبط بنيامين[٤].

وهناك من العلماء من لم يتحدّث عن اتّصال نسبه، وكلّ ما قالوه أنّه من بني إسرائيل فقط (رحمة الله عليهم جميعاً)، منهم:

– أبو حيان: هو يونس بن متّى من بني إسرائيل، وروي أنّه نبي، وهو ابن ثمان وعشرين سنة[٥].

---

(١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، (٢/ ٦٨).

(٢) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عبد الرحمن بن محمد عليمي، المطبعة الحيدرية، ٢٠١٦م، (١/ ١٥٦).

(٣) النبوة والأنبياء دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام ودعوتهم وأثرهم في تغيير مفاهيم البشر بأسلوب يجمع بين الدقة والسهولة والجدة والتحقيق، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا، ط٣، ١٩٨٥م، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، ١٩٧١م، نقلا عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في ظل القرآن الكريم، ص٢٠.

(٥) البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، (٧/ ٣٧٩).

– قال ابن الجوزي: يونس اسم أعجمي، وفيه ستّ لغات بضمّ النون وفتحها وكسرها والهمز مع اللغات الثلاث. وكان يونس من ولد يعقوب، وكان عبداً من عباد بني إسرائيل(١).

– قال الإمام الآلوسي: ولم نقف في شيء من الأخبار على اتّصال نسبه(٢).

– قال الإمام الحافظ بن حجر: ولم أقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه، وقد قيل إنّه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس(٣).

– قال الشيخ عبد الوهاب النجّار: ولم يُعلم نسبه في كتب التفسير والحديث إلّا أنّه يونس بن متّى، ويقول أهل الكتاب إنّه يونان بن امتاي(٤).

– قال ابن الأثير: لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمّه إلّا عيسى بن مريم، ويونس بن متّى، وهي أمّه وكان من قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى، وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوحيد(٥).

وإن الراجح أنّ نسب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أبيه لحديث ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا عند الله خير من يونس بن متّى**»(٦).

---

(١) التبصرة، أبو الفرج بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٥م، ص٣٢٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، (٧/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، (٦/ ٣٢٤).

(٤) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، ٢٠١٩م، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٥) الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الأثير)، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م، (١/ ٣٢٩).

(٦) قصص الأنبياء (نوح ويونس عَلَيْهِمَا السَّلَامُ)، محمد العروقي، ص٢٨.

وقد استقرّ عند الكثير من الباحثين، واشتهر لديهم بأنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يونس بن متّى[١]، ولقّب (ذو النون) وبـ (صاحب الحوت)، ولا شك أنّه من نسل سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]، كما جاء في سورة الأنعام، ويأتي الحديث عنها عند حديثنا عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في موكب النبيّين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٢- يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: مولده ونشأته:

يَصعب الوصول إلى اليقين العلميّ في مكان مولده، وقد ذكرت بعض الكتب التاريخيّة أنّه ولد في قرية من قرى فلسطين[٣]، وذكر عبد الرحمن حبنّكة الميداني: بأنّه ظهر خلال القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤].

وذكرت قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأنبياء بعد قصّة أيّوب، حيث سبقها ذكر قصص إبراهيم ولوط وإسحاق وداود وسليمان وأيوب، وذكر بعد يونس قصّة يحيى وزكريا وعيسى (عليهم الصلاة والسلام)، ولعلّ هذا يدلّ على أنّ يونس كان بعد داود وسليمان وأيّوب، وقبل يحيى وزكريّا وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وهذا من باب الاحتمال والاستئناس، وليس من باب الجزم واليقين، لأنّ ذكر الأنبياء في سورة الأنبياء على أساس التسلسل التاريخي لأزمان وجودهم، كما يوحي سياق السورة والله أعلم[٥].

---

(١) أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة محمد القحطاني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، كلية أصول الدين، الرياض، ٢٠١٦م، ص٣٣٠، التائبون في القرآن الكريم، زكي محمد أبو سريع، ص٢٢٣، تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، ص٣٢٨.

(٢) بنية المكان في القصة القرآنية، عبد الله خضر، دار جرير للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م، ص٨٢.

(٣) بلادنا فلسطين، مراد الدباغ، دار الهدى، كفرقرع، ١٩٩١م، (١/ ٤٣٨).

(٤) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ٢٠١٣م، ص٢٠٩.

(٥) القصص القرآني، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (٤/ ٣٥).

وأمّا نشأته فكانت برعاية الله له، وأعدّه لحمل الرسالة، واختياره للتبليغ عنه، وتأدية وظائف الرسالة من دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وترك ما سواه، وتبليغ الشريعة الربّانيّة إلى الناس، وتبيين دين الله لهم، وإقامة شرع الله بينهم، وقد اشتهر بالصدق والأمانة والفطانة، والذكاء ومكارم الأخلاق، ولا تتوفّر الأدلّة الكافية على المكان الذي ولد فيه، وإنّما يُرجّح البعض كما قلت أنّه ولد في فلسطين. وكلّ ما نملكه من الدليل أنّه بُعث وعاش في مدينة نينوى[١]، من بلاد العراق، وهم خليط بين الآشوريّين واليهود[٢].

٣- بعثته إلى أهل نينوى:

كان أهل نينوى من العراق، كانت مدينة (نينوى) قديمة تقع قريباً من الموصل شمال العراق، وكانت عاصمة الآشوريين[٣]، وكانت أكبر دولة في تلك الفترة التاريخيّة كما يقول بعض المؤرّخين[٤]، وكانت تلك الأمّة لا تختلف عن غيرها من الأمم الغابرة في المعتقد والتفكير، إلّا بما انطوت عليه البيئة، أو فرضته سُبُل العيش، فقد عبدوا الأصنام ووقعوا في حمأة الجهل والشرك حتّى قصرت حياتهم الفكريّة عن إدراك الحقائق السامية، والارتقاء إلى المثل العليا.

ولئن كانت حياة بني البشر في تلك الأزمان قد قامت على الوثنية، إلّا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو خالق السماوات والأرض، وما فيهم، لا يترك عباده يهيمون في

(١) دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، عامر محمود القيسي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن، ٢٠١٥م، ص١٧٦.

(٢) بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ، (١/ ٤٢٥).

(٣) القصص القرآني، الخالدي، (٤/ ٣٦).

(٤) معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، محمد الغاني، دار اللؤلؤة، ط١، ٢٠٢٠م، (١/ ١٤٦).

مهاوي الضلالة والبغي، وفي دياجير الظلام والضياع، فقد تجلّت رحمته، وعظمت نعمته ببعث النبيّين والمرسلين، هُداة لأهل الأرض حتّى يُخلّصوهم من أوزارهم، فينعموا برضى الرؤوف الرحيم.

وحتّى لا يكون لأهل نينوى حجّة على خالقهم، كمثل أهل الأرض كلّهم، فقد بعث فيهم نبيّاً يحمل رسالة التوحيد، ويدلّهم على طريق الإيمان الصحيح.

وجاء نبيّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني قومه بحجّة ملؤها الحكمة والبيان، ويدفع ببيّنة قوامها الدليل والبرهان(١)، جاء يحذّرهم الشرك والكفر، فأقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده(٢).

أ- الدليل على بعثة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل نينوى:

أخرج ابن هشام في السيرة النبويّة عن محمّد بن كعب القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن رحلة رسول الله إلى الطائف، وسوء استقبال أهلها له، وسوء ردّهم عليه، وأنّهم ردّوا دعوته، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبّونه ويشتمونه ويصيحون به، فخرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الطائف، وهو مهموم مغموم حزين، وعاد إلى مكّة، ومرّ على بستان لعتبة وشيبة ابنَي ربيعة القرشيّين، ووجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجرة من عنب، وكان عتبة وشيبة في البستان ينظران إليه، فلمّا اطمأنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جلسته دعا الله قائلاً: «**اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ**

(١) قصص الأنبياء، سميح عاطف، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ط٧، ٢٠٠٥م، ص٦٠٣.
(٢) الشرك القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، ٢٠٠٥م، (١/ ٣٠٥).

وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك»[1].

فلمّا رآه عتبة وشيبة ابنا ربيعة رقّا له، ودعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً يُقال له (عدّاس) وقالا له: خذ قُطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، واذهب به إلى ذلك الرجل، أخذ عدّاس العنب، ووضعه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال له: كل، وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في الطبق، وقال: «**بسم الله**»، ثمّ أكل، فنظر عدّاس في وجهه ثمّ قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل البلاد، فقال له رسول الله: «**من أهل أيّ البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟**» قال عدّاس: أنا نصرانيّ، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من بلد الرجل الصالح يونس بن متّى**»، فقال له عدّاس: وما يُدريك ما يونس بن متّى؟، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيّ**»، فأكبّ عدّاس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبّل رأسه ويديه ورجليه، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك، ولمّا عاد عدّاس إليهما قالا له: ويلك يا عدّاس، ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال عدّاس: يا سيّدي ما في الأرض من شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلّا نبيّ، قالا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرّفك عن دينك، فإنّ دينك خير من دينه[2].

---

(١) السيرة النبوية، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن هشام. دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٧م، (٢/ ٦١-٦٢)، المعجم الكبير (معجم الطبراني)، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهر، مصر، ط٣، ٢٠٠٧م، (٢٥/ ٣٤٦)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م، (٦/ ٣٥)، السيرة النبوية، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٠م، (١/ ٣٠٢)، السيرة النبوية الصحيحة أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، ٢٠١٣م، (١/ ١٦٨)، ضعّف الحديث.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، (٢/ ٦٠-٦٣)، من أنباء القرى، د. أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٧م، ص٥٧٥.

كان الغلام النصراني من أهل نينوى، وبما أنّه نصرانيّ فإنّ عنده علماً بطرف من قصّة يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك فوجئ بمعرفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصّة يونس، وعلم أنّه نبيّ مثله فأسلم.

وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نينوى إنّها بلد النبيّ الصالح يونس بن متّى يدلّ على أنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من أهل نينوى أساساً، وُلد وعاش فيها وبعثه الله نبيّاً إلى أهلها[١].

وهذا يردّ على من قال أنّه وُلد في فلسطين. وهل كانت نينوى زمن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ آشوريين أم كانوا إسرائيليّين؟ أم كانوا خليطاً من الآشوريّين والإسرائيليّين؟ فكلّ هذه الاحتمالات ممكنة، وهذه الحادثة تدلّ على عمق الرابطة الموثقة بين الأنبياء، وأنّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم ممّا علّمه الله كثيراً من أخبار الأمم بعامّة والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بخاصّة؛ ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وبلده، ويشهد قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُوتيتُ القرآنَ ومثلُه معه**»[٢].

وإنّما ذكرنا هذا حتّى لا يتوهّم أنّ ما أُعطيه النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ذا صلة بالأحكام التشريعيّة فحسب[٣].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٣٨).

(٢) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط١، ١٣٨٨ه، كتاب السنن، باب لزوم السنة، مختصر أبي داود، ص١٨، أخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

(٣) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م، ص٦٤٠.

ب- دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه:

أشعل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قبس الإيمان، وحمل راية التوحيد، وذَكَّر قومه الجاهلين بدعوة الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأن تسجد جباههم لله الواحد القهّار لا لهذه الأوثان، وبيّن لهم بأنّ الله أرسله لهم هداية لهم، ورحمة بهم، للدلالة عليه(١).

واستمرّ في وعظه ونصحه وإرشاده لقومه، وظلّ في نصحه لقومه(٢).

ونهاهم عن المنكر وأمرهم بالمعروف، فقد كان أهل نينوى على سعة من الرزق والغنى الفاحش، فارتكبوا الموبقات والمعاصي(٣).

كانت دعوته في أصولها ما اتفقت جميع الرسالات السماويّة عليها على امتداد دعوات الرسل (عليهم الصلاة والسلام)، ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان، لأنها حقائق ثابتة لا تتطوّر ولا تتغيّر، ولا يدخلها النسخ كما يدخل في فروع الشرائع، وقد جاءت النصوص القرآنيّة تؤكّد هذه الحقيقة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

---

(١) قصص القرآن الكريم، محمد أحمد جاد المولى، دار الجيل، بيروت، ٢٠١١م، ص٢٣٤.

(٢) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ٢٠٠٦م، ص٢١٢.

(٣) دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الألمعي، دار الميمان للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، ص٣٢.

- وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعقيدة الإيمان التي دعا إليها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وكلّ الأنبياء والمرسلين، تطهّر القلب من بذور الشرك والوثنيّة، وتربطه بالله عقيدة صافية، وهي:

- ما يجب به في جانب الله:

إقراراً بوجوده، وخلقه، وتدبيره، وقضائه وقدره، وإفراداً له بالوحدانيّة والعبادة، ووصفاً له بصفات الكمال والجلال مع الإقرار بالكمال ممّا وصف به نفسه أو وصفه به رسوله[1].

- ما يجب الإيمان به من حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء:

وقد تحدّثت آية البرّ في سورة البقرة عن هذه العقيدة الواضحة الشاملة بقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية الكريمة ترشد إلى المعوَّل عليه من الإيمان، وأنّ البرّ ثلاثة أنواع جامعة لكلّ خير؛ برّ في العقيدة، وبرّ في العمل، وبرّ في الخلق:

---

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر الألمعي، ص٣٢.

– فالبرّ في العقيدة بيّنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ والإيمان في ربوبيّته ووحدانيّته، وكمال صفاته، والإيمان باليوم الآخر ويوم الحشر والنشر والجزاء والحساب.

– والإيمان بالله واليوم الآخر، وهما الإيمان بالمبدأ والمعاد، ولا يمكن للعقل البشري أن يعرف ذلك مستقلًّا دون الوحي والرسالة. فإذن، لا بدّ من واسطة بين المصدر الأوّل وهو الله تعالى وبين بقيّة خلقه، وهذه الواسطة في طريق المعرفة لمستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر، وتتكوّن الواسطة من ثلاثة عناصر:

– عنصر في الطرف الأعلى، وله بحسب تكوينه وخلقه استعداد يمكّنه من التلقّي عن الله مباشرة، وهم الملائكة، والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحي، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحي، وهو يستلزم إنكار النبوّة وإنكار الدار الآخرة[1].

– عنصر في الطرف القريب من الناس، وهو منهم بمقتضى بشريّته، وله صلة بالملأ الأعلى بمقتضى التواصل الروحانيّ الجسديّ، وهم الأنبياء يتّصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله أو سَفَرته كما عبّر القرآن، فيتلقّون عنهم ما أمر الله به من أحكام وتشريعات.

– العنصر الثالث: هو الرسالة نفسها والوحي، وقد عُبّر عنهم في الآية (بالكتاب). والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله، وأنّ الإيمان بكتاب ما في الكتب السماويّة إيمان بالكلّ، وعندما نتكلّم عن الواسطة بين الله تعالى وبين رسله في الوحي فإنّ ذلك هو الغالب، ولكن لا يمنع من أن يكلّم الله من شاء

(١) المصدر السابق، ص٣٤.

من رسله من غير واسطة كما كلّم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكلّم نبيّنا محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج بدون واسطة[١].

إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيّ من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ ورسله، سار على نهجهم وطريقتهم في تبليغ رسالات الله التي أوحاها الله إليه في أصول الإيمان، وأصول الشرائع وأصول الأخلاق، والفضائل، وفي سائر الأمثال الصالحة التي هي مدد العقيدة، وفي الوقت نفسه هو ثمرتها، ويحفظها وينمّيها ويدلّ عليها، ويدفع بأصحابها إلى الوفاء بها وبعهودهم مع الله، والتحمّل في الطاعات بالصبر الجميل، والابتعاد عن الذنوب والمعاصي بالهجر الجميل، وتحمّل النكبات والمصائب بالاحتساب الجميل أنّ عقيدة الإيمان بعث الله بها رسله كافّة، ومنهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

اعتمد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته على دلائل العقل والمنطق والفطرة، وخاطب النفس والوجدان، فأراد للقوم أن يتفكّروا بما هم عليه من الخلق، وأن ينظروا إلى ما حولهم فيدركوا بأنّ وراء هذا الكون خالقاً ومدبّراً، ويؤمنوا بأنّ هذا الخالق واحد لا شريك له، ويختصّ وحده بالعبادة وله الأسماء الحسنى[٢].

وشرع في بيان عقيدة التوحيد، وأركان الإيمان، وبيّن لهم لغز الوجود، وحقيقة الحياة والموت، ومن خلال عقيدة الإيمان أجاب على الأسئلة المتوالية من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ فهذه العقيدة نزلت بها كتب السماء كافّة، علَّمها آدمَ نبيَّه، وأعلنها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه، ودعا إليها هود وصالح ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، ص١٠٤.

(٣) دراسات في التفسير الموضوعي، ص٣٥.

كانت دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ للعقول والقلوب، وأخذ يذكّرهم بأنّ الله قد بعثه رحمة لهم، ورأفة بهم كي يدلّهم على آثار رحمة ربّه التي هي كفيلة بأن تهديهم إلى نعمه وآلائه.

وركّز في دعوته على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ كسائر الأنبياء والمرسلين، فالتوحيد هو جوهر رسالات الله لخلقه.

وإن التوحيد في دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعوة المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليس قيمة عقديّة أو مفهوماً دينيّاً فحسب، بل هي رؤية للكون والإنسان، والحياة والمجتمع لها انعكاساتها وتأثيراتها على منهج التفكير، ومسلك الحياة، والتفاعل الاجتماعي، وجميع نشاطات الحياة، إذ يُعد التوحيد قاعدة شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ومرتكزه، والتي تنطلق منه الشرائع في المعاملات والأخلاق والعبادات...إلخ[1].

فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يؤكّد لقومه حقيقة التوحيد، ووحدانيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلّ الأنبياء والمرسلين هذا الأصل العظيم حاضر في دعوتهم بدون استثناء.

وإنّ المهمّة الأساسيّة في دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ والمشتركة بين جميع الأنبياء هي حقيقة التوحيد، وتحقيقه بين حياة الناس، وجعل التوحيد مرتكزاً ومنطلقاً لعمليّة إصلاح ما أفسد في المجتمع سواء كان الفساد إداريّاً أم سياسيّاً كما هو الحال في مجتمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو فساداً اقتصاديّاً وتجاريّاً كما هو الحال في مجتمع شعيب، أو فساداً في القيم والنظرة إلى الإنسان كما هو الحال في مجتمع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. فالتوحيد هو المرتكز الأساسي والمنطلق الرئيسي لعمليّة إصلاح ما أُفسد في حياة المجتمعات[2].

---

(١) الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، ٢٠١٣م، ص٩١. وانظر: قصص الأنبياء، سميح عاطف، ص١٠٤.

(٢) الأمة في الرؤية الإسلامية، ص٩٢.

وركّز يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته على تحقيق العبوديّة لله عَزَّوَجَلَّ، فالهدف من خلق الإنسان في دعوة الأنبياء والمرسلين تحقيق العبوديّة لله، وعمارة الأرض على منهج الله، فالله بيّن في كتابه العزيز ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وقد أجاب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ على السؤال الخالد: لماذا خُلق الإنسان، وبيّن لقومه أبعاد العبوديّة، وركّز على حقيقتها، ودعوة قومه إلى تحقيقها وأدائها كما ينبغي وبيّن شروط قبول العبادة، وحذّرهم من خطورة الشرك، وعبادة الأصنام، والوقوع في مستنقع الأهواء، وتزيين الشياطين ووساوسهم وحيلهم.

ولكنّهم رفضوا الاستجابة، ولم يتقبّلوا منه، وأظهروا ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ العداوة، وجاهروه بالعناد، وجادلهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحقّ، وبيّن لهم طريق الصواب، ولكنّه لم يظفر منهم إلّا بتعنّت الجاهلين، فأنكروا عليه دعوته، وراحوا يُؤلّبون القريب والبعيد حتّى يُحقّروه ويذمّوه، فهاهم يتعمّدون النيل منه بالتهكّم والسخرية، وتمادوا في محاولتهم تلك حتّى ينكفئ عنهم، إلّا إنّهم لم يُفلحوا، لأنّه ظلّ يتحمّل كلّ ما يُبدون، وكانوا كلّما نزلوا في مهاوي الضلال زاده ذلك إيماناً وعزماً على إصلاحهم، ولجأ إلى التهديد والتحذير عن سوء عاقبة لما يفعلون[١]، ولكنّهم رفضوا دعوته، وأصرّوا على الكفر، فغضب منهم، وغادرهم بعد أن أنذرهم عذاب الله[٢].

وهذا حديث موقوف على عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نستأنس به فيما جرى بين يونس وبين قومه.

---

(١) قصص الأنبياء، سميح عاطف الزين، ص٦٠٥.

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٣٨).

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان وعد قومه العذاب وأخبرهم أنّه يأتيهم إلى ثلاثة أيّام، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها، ثمّ خرجوا فجأروا إلى الله واستغفروا، فكشف الله عنهم العذاب(١).

وغدا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتظر العذاب، فانطلق مغاضباً، حتّى أتى قوماً في سفينة، فحملوه وعرفوه(٢).

وذكر الشيخ عثمان الخميس: أنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ استمرّ في دعوته ما شاء الله له، ثمّ بعد ذلك خرج مغاضباً، وذلك لـمّا استعصى عليه قومه، وامتنعوا عن اتباعه (صلوات الله وسلامه عليه)، فخرج من بين أظهرهم، وتوعّدهم بعذاب ينزل عليهم من الله حالهم في ذلك حال سائر الأقوام الذين كذّبوا الله جَلَّ وَعَلَا.

ولـمّا خرج (صلوات الله وسلامه عليه) من بين أظهرهم قذف الله جَلَّ وَعَلَا في قلوبهم التوبة، والإنابة، والخوف، وذلك ممّا شاهدوا مقدّمات هذا العذاب الذي توعّدهم به يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعند ذلك تابوا إلى الله جَلَّ وَعَلَا وأنابوا ولجؤوا إليه، وخرج النساء والرجال يبكون خوفاً من الله(٣).

وتوزّعوا في شعاب الجبال وبطون الأودية يتضّرعون ويبكون، ويتوسّلون أن يتقبّل الله منهم توبتهم، وأن يرفع عنهم العذاب، ووصلت بهم الحال إلى أن فرّقوا

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٣٨).

(٢) سلسة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ٢٠٠٦م، رقم ٧٧، رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير وابن أبي شيبة وصحح ابن حجر في الفتح إسناده ابن أبي حاتم.

(٣) فبهداهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ص٤١٣.

الأمهات عن أطفالها، والإبل عن فصائلها، والأبقار عن عجولها، والأغنام عن حملائها، وشق على الجميع فراق الأولاد: فصاحت الأمهات، ورغت الإبل، وخارت البقر، وثغت الغنم، حتّى تلاشت النفوس، وصغرت، وذابت الغطرسة، وانمحت. ومرّت أوقات رهيبة ولكنّها آلت إلى خير، فقد بسط الله تعالى عليهم جناح الرحمة، ورفع عنهم سحائب النقمة، إذ كانوا في توبتهم صادقين، وفي إيمانهم خالصين لله ربّ العالمين، وبلغ في توبتهم أن بدأوا بردّ المظالم بينهم حتّى أنّ الرجل كان يأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه إلى صاحبه، فحبس الله عنهم العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مطمئنّين، وودّوا أن يعود إليهم ليعيش بينهم رسولاً ونبيّاً ومعلّماً وإماماً[١].

ولكنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مع أقدار الله الغلّابة التي سنبيّنها خلال قصته التي جاءت في القرآن الكريم (بإذن الله تعالى).

٤- حديث أسفار العهد القديم عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

خصّص مؤلّفو أسفار العهد القديم سفراً خالصاً ليونس الذي سمّوه (يونان)، وهو السفر الثاني الثلاثون، وجعلوه من أربع إصحاحات.

وإنّ الأحبار الذين كتبوا (سفر يونان) يهود عنصريّون، وكاذبون، حيث زعموا أنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إسرائيليّاً عبرانيّاً، وأنّ الله بعثه نبيّاً إلى نينوى (عاصمة الآشوريّين).

وقد انتصر يونس للإسرائيليّين، وتعصّب لهم، ولذلك غضب الرب لأنّه بعث نبيّاً إلى أعدائهم الآشوريّين، غضب الربّ لأنّه أراد إنقاذ وهداية الآشوريّين،

(١) قصص الأنبياء، سميح عاطف الزين، ص٦٠٧.

وهرب من ربّه، ولكنّ الرب عاقبه بأن طرحه في البحر، وجعله في بطن الحوت، ولـمّا عُوفي أمَره الربّ بالذهاب إلى عاصمة الآشوريّين، فذهب إليها مُرغماً مُكرهاً حانقاً غاضباً...

ونبرأ إلى الله من هذا الكذب والبهتان، ونجزم ببراءة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه المزاعم الشيطانيّة العنصرية، فما هو إلّا نبيّ كريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حريص على دعوة الناس إلى الله، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولم يكن يهوديّاً عنصريّاً متعصّباً، ولا غاضباً متمرّداً على الله رافضاً تبليغ دعوته[1].

أ- تعليق الدكتور محمّد بيومي مهران على سفر يونان:

على أيّ حال، فإنّ العلماء لا يعرفون حتّى الآن من الذي كتب سفر يونان هذا في روايته الحاليّة، كما جاءت في العهد القديم، وإن كانوا يذهبون إلى أنّه كُتب ربّما حوالي عام ٣٥٠ قبل الميلاد، وليس هناك أي دليل يثبت أنّ يونان هو كاتب هذا السفر الذي يحمل اسمه من بين أسفار العهد القديم.

هذا، ويختلف الباحثون كذلك في موضوع السفر نفسه، فهناك فريق يذهب إلى أنّ كاتب السفر لم يقصد أن يروي قصّة تاريخيّة عن نبيّ عاش قبله، وإنّما أراد أن يكتب موعظة في قالب قصّة، معتمدين في ذلك على أسباب منها:

- وجود السفر مع الأسفار النبويّة، وليس مع الأسفار التاريخيّة.

- ذكره لمعجزات تختلف عن المعجزات المذكورة في الأسفار التاريخيّة، ولا سيما النبأ المتعلّق بالحوت.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٣٦).

وقد ذهب بعض الباحثين المحدّثين إلى أنّ رواية سفر يونان إنّما هي أيضاً تشبيه ليس إلّا[١].

إلى أن قال:... والرأي عندي أنّ قصّة الحوت التي جاءت في سفر يونان هذا، والتي ثار حولها جدل طويل بين علماء التوراة وشُرّاحها، ليس كما يزعم بعض الباحثين المحدّثين، قصّة رمزيّة أو رواية تمثيليّة في قالب تاريخي، وإنّما هي دونما أيّ ريب، وبكلّ يقين المسلم وإيمانه بما جاء في كتاب الله، وحديث المعصوم سيّدنا ومولانا محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما رأينا من قبل؛ إنّما هي قصّة تاريخيّة حقيقيّة، لأنّها فيما نعتقد ونؤمن به الإيمان كلّ الإيمان، إنّما تمثّل معجزة نبيّ، والمعجزة فيما نعلم، قوة إلهيّة يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، والحصول على نظير لها، ولا تأتي إلّا في مقام التحدّي والإعجاز، وهي كغيرها من معجزات الأنبياء من عمل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا لأحد فيها سواه جَلَّ جَلَالُهُ، فليس لنبيّ يد في الخوارق التي بهرت الناس وقهرت الخلق، وقامت أدلّة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنّهم مبلّغون عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٢]، ومن هذا النوع كانت معجزة الحوت لسيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كما رأينا من قبل[٣].

ب- ما قاله الدكتور سامي العامري:

ليس في سفر يونان تحديد لتاريخ زمن هذا النبيّ، ومع ذلك يربط عامّة الباحثين يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بزمن يربعام الثاني ملك السامرة في القرن الثامن قبل الميلاد،

(١) دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، (٤/ ١٩٠).

(٢) معجزات الأنبياء بين العقل والعلم، محمد الصادق عرجون، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٥م، ص٢.

(٣) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (٤/ ١٩٢).

محتجّين بما جاء في ٢ ملوك ١٤/ ٢٣-٢٥: والتسليم أنّ (يونان بن أمتاي) في السفرين السابقين شخص واحد لا يُلزمنا بشيء، لأنّنا لا نسلّم صحّة ما جاء في سفر الملوك الثاني؛ لانقطاع إسناده إلى أصل الأخبار، ولما فيه من أخطاء تاريخيّة، خاصّة أنّ الإشارة فيه إلى يونان النبيّ كانت عابرة وخاطفة، لم يبق لنا إلّا أن ننظر في سفر يونان، لأنّه كتب لتفصيل الحديث في أمر هذا النبيّ، ولكنّ هذا السفر مجهول التاريخ، إذ ليست فيها أيّ إشارة إلى حدث تاريخيّ له شواهد من خارجه، كاسم ملك أو اسم معركة، ولا يعرف مؤلّفه ولا زمن تأليفه من طريق موثوق من التراث الإسرائيلي، كما أنّ فيه إشكالات تاريخيّة، كحديثه عن (ملك نينوى)، رغم أنّ نينوى لم تكن مملكة، وإنّما كانت تابعة لكيان سياسي أكبر وحديثه عن حجم نينوى الذي هو أعظم بكثير من حجمها، ولعلّ أعدل ما جاء في سفر يونان قول معجم الكتاب المقدّس: تشير طبيعة الكتاب والاعتبارات المختلفة المذكورة أعلاه إلى أنّ هذا الكتاب ليس من تأليف نبيّ القرن الثامن يونان المذكور في سفر الملوك، وأنّ الكتاب تأليف متأخّر عن ذلك بمدّة كبيرة، وإن كانت التواريخ المقترحة تتراوح من القرن السادس إلى القرن الرابع مشكلات تاريخ السفر نفسها، تجعل من المستحيل تحديد شخصيّة المؤلّف بمجرّد استبعاد نفسه[1].

وردّ الدكتور سامي العامري على من شكّك من الباحثين في تاريخيّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب خارقة ابتلاع الحوت له ثم لفظه بعد ذلك حيّاً، فقال: وأمر هذه الخارقة ليس من مباحث النظر الأركيولوجي؛ فلن تخبر به أسرار نينوى ولا آنيّتها ولا نقوشها.

(١) الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأركيولوجي، سامي العامري، ٢٠٢١م، ص٣٤٨.

وأمر تصديق الخوارق فرع من الإيمان بالله، فمن آمن بالخالق الذي أنشأ الوجود من عدم، وخلق الشجر وأنزل المطر، ورفع الجبال، ومهّد السُّبل، لا يُعجزه أن يحفظ نبيّاً في بطن حوت أيّاماً أو دهراً، فالإنسان يملك بخارقة إلهيّة أن يعيش دون تنفّس، ويعجز الحوت أن يهضمه لإرادة الله سبحانه ألّا يكون ذلك، والقولُ أنّه لا يوجد حوت لا يتّسع بطنه لإنسان غيرُ صحيحٍ، فإنّ حوت العنبر الذي يبلغ طول الذكور البالغة منه ١٦ متراً يتّسع بطنه لذلك[١].

وخلاصة الأمر في حديثه عن الوجود التاريخي ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- ليس في أخبار يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن ما لا بدّ أن نجد أثره في الكشوف الأركيولوجيّة.

- ليس في خبر القرآن عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب ما يخالف حقيقة تاريخيّة.

إنكار تاريخيّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب إنكار معجزة ابتلاع الحوت له، لا يقوم على أساس أركيولوجي، وإنّما يقوم على أساس عقدي طبيعي ينكر الخوارق.

- ليس في القرآن أيّ تحديد لزمن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ولذلك، لا حجّة لمن أراد أن يستنكر تاريخيّة هذا النبيّ، لاستبعاده إيمان أهل نينوى في القرن الثامن قبل الميلاد بنبيّ التوحيد[٢].

ثانياً: السور التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ذُكر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ باسمه الصريح أربع مرّات في القرآن، وإحدى سور القرآن تحمل اسمه (سورة يونس) المكّيّة، وردت إشارة إلى قصّته دون التصريح باسمه في سورتين، فيكون ذكره ورد في ستّ سور.

(١) الوجود التاريخي للأنبياء، ص٣٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٩.

ففي سورة النساء ورد اسمه ضمن أسماء مجموعة من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)[١].

لقد صرّحت الآية الكريمة بأنّ الله أوحى إلى يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجعله نبيّاً كما أوحى إلى إخوانه الأنبياء.

وفي سورة الأنبياء وردت إشارة سريعة إلى منحة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو في بطن الحوت، واستغاثته بالله، واستجابة الله له، ولم يرد اسم يونس فيها صريحاً[٢]، وإنّما بصفته (ذو النون)[٣].

وفي سورة الصافات، وردت إشارة سريعة إلى محنة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عندما غادر قومه، وأُلقي من السفينة والتهمه الحوت، وسبّح الله في بطن الحوت، وطرحه الحوت على الشاطئ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وأعاده إلى قومه فوجدهم مؤمنين.

وفي سورة القلم وردت إشارة سريعة إلى محنة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذلك في سياق توجيه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الصبر، ونهيه عن التصرّف كما تصرّف يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٤].

وفي سورة يونس وردت إشارة سريعة إلى إيمان قوم يونس ورفع العذاب عنهم بسبب إيمانهم، وذلك ضمن الكلام على سنّة الله في الإيمان والكفر والهدى والضلال[٥].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٣٣).
(٢) القصص القرآني، (٤/ ٣٤).
(٣) الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، د. علي العريبي، دار ابن حزم، ٢٠١٤م، ص٩٧.
(٤) القصص القرآني، (٤/ ٣٤).
(٥) المصدر السابق، (٤/ ٣٣).

ومن هذه الإشارات السريعة إلى مواضيع ذكر قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في ستّ سور قرآنيّة، نعرف أنّ تكرارَ القرآنِ الحديثَ عنها لم يكن تكراراً خالياً من الفائدة أو الإضافة، وإنّما هو تكرار حكيم مقصود يُضيف في كلّ موضع معلوماتٍ جديدةً، وتكون هذه المعلومة المضافة منسجمةً مع السياق الذي وردت فيه[1].

١- يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في موكب الأنبياء والمرسلين في سورة النساء:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وهذا السياق القرآني يتحدّث عن موكب واحد يتراءى عن طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير، وموكب واحد يضمّ هذه الصفوة المختارة من البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان وداود وموسى، وغيرهم ممّن قصّهم الله على نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرآن الكريم، وممّن لم يقصّ عليه، موكب من شتّى الأقوام والأجناس، وشتّى البقاع والأرضين في شتّى الآونة والأزمان، لا يفرّقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن، ولا زمن ولا بيئة،كلّهم آت من ذلك المصدر الكريم، وكلّهم يحمل ذلك النور الهادي، وكلّهم يؤدّي الإنذار والتبشير،

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمان، ٢٠٠٧م، ص٤١٧.

وكلّهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة إلى ذلك النور، سواء منهم من جاء لعشيرة، ومن جاء لقوم، ومن جاء لمدينة، ومن جاء لقطر، ثمّ من جاء للناس أجمعين محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيّين.

كلّهم تلقّى الوحي من الله فما جاء بشيء من عنده، أولئك الرسل -من قصّ الله على رسوله ومنهم ومن لم يقص- اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشّرونهم بما أعدّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم ما أعدّ الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولله الحجّة البالغة في الأنفس والآفاق، ولكنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمة منه بعباده وتقديراً لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم -أداة العقل- اقتضت رحمته وحكمته أن يُرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين يُذكّرونهم ويُبصّرونهم: ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى، وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق:

- ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.
- ﴿عَزِيزًا﴾؛ قادراً على أخذ العباد بما كسبوا.
- ﴿حَكِيمًا﴾؛ يدبّر الأمر كلّه بالحكمة، ويضع كلّ أمر في نصابه[1].

ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتّب للناس حجّة على الله سبحانه لو لم يرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين، هذا ما احتشد كتاب الكون المفتوح وكتاب النفس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، (٢/ ٨٠٥-٨٠٦).

المكنون بالآيات والشواهد على الخالق، ووحدانيّته وتدبيره وتقديره، وقدرته وعلمه. ومع امتلاء الفطرة بالأشواق والهواتف إلى الاتصال ببارئها والإذعان له، والتناسق والتجاوب والتجاذب بينها وبين دلائل وجود الخالق في الكون والنفس، مع هبة العقل الذي يملك أن يُحصي الشواهد ويستنبط النتائج، ولكنّ الله سبحانه بما يعلم من عوامل الضعف التي تطرأ على هذه القوى كلّها، فيعطّلها، أو يفسدها، أو يطمسها، أو يدخل في حكمها الخطأ والشطط، قد أعفى الله من حجّية الكون وحجيّة الفطرة، وحجيّة العقل، ما لم يرسل إليهم الرسل، ليستنقذوا هذه الأجهزة كلّها ممّا قد يرين عليها، وليضبطوا بموازين الحق الإلهيّ الممثّل في الرسالة، هذه الأجهزة فتصحّ أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي، أو تسقط حجيّتها وتستحقّ العقاب[1]، وخطأ وضلال -إن لم يكن هو الخداع والتضليل- كلّ زعم يقول: إنّ العقول الكبيرة كانت حَرِيَّة أن تبلغ بدون الرسالة ما بَلَغته بالرسالة، فالعقل ينضبط مع الرسالة بمنهج النظر الصحيح، وآية أنّ ما يتمّ بالرسالة -عن طريق العقل نفسه- لا يمكن أن يتمّ بغيرها، فلا يغني العقل البشري عنها.

إنّ تاريخ البشريّة لم يسجّل أنّ عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العاديّة والمتوسّطة بالرسالة.

- لا في تصوّر اعتقادي.
- ولا في خُلُق نفسي.
- ولا في نظام حياة.
- ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٨١١).

إنّ عقول أفلاطون وأرسطو من العقول الكبيرة قطعاً، بل إنّهم ليقولون: إنّ عقل أرسطو هو أكبر عقل عرفتْه البشريّةُ -بعيداً عن رسالة الله وهداه- فإذا نحن راجعنا تصوُّره لإلهه -كما وصفه- رأينا المسافة الهائلة التي تفصله عن تصوّر المسلم العادي لإلهه مهتدياً بهدي الرسالة[1].

فسبحان الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ونلاحظ في الآية الكريمة، أنّها لا تراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض -كما يُلاحظ في مواضع أخرى- لأنّ المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

ومن جملة من ذُكر في هذا الموكب العظيم من الأنبياء والمرسلين: يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالتالي دخل في مقام النبوّة والرسالة، وفيمن أوحى الله إليهم برسالته.

٢- يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في موكب الأنبياء والمرسلين في سورة الأنعام:

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

(١) المصدر السابق نفسه.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠].

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

- ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

- ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وكلّها تعقيبات تقرّر إحسان هذا الرهط الكريم، واصطفاءه من الله، وهدايته إلى الطريق المستقيم، وذكر هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض هذا الموكب من هذه الصورة كلُّه تمهيدٌ للتقريرات التي تليه:

- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض، فهدي الله للبشر يتمثّل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتّباعه في هذا المصدر الواحد، الذي يقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّه هو هدى الله، وأنّه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده. ولو أنّ هؤلاء العباد المهديّين حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدّون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقّي، فإنّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي أن يذهب ضياعاً ويهلك كما تهلك الدابّة التي ترعى نبتاً مسموماً، فتنتضح ثمّ تموت، وهذا هو الأصل اللغويّ للحبوط.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمَا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾؛ وهذا هو التقرير الثاني، فقرّر في الأوّل

مصدر الهدى، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرّر في الثاني أنّ الرسل الذي ذكرهم والذين أشار إليهم؛ هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوّة.

- ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ يجيء بمعنى (الحكمة) كما يجيء بمعنى (السلطان) كذلك، وكلا المعنيّين محتمل في الآية، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى، والزبور مع داود، والإنجيل مع عيسى، وبعضهم آتاهم الله الحكمة، كداود وسليمان، وكلّهم أوتي السلطان على معنى أنّ ما معه من الدين هو حكم الله، وأنّ الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلّا ليُطاعوا، وما أنزل الكتاب إلّا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوّة، وأولئك هم الذين وكّلهم الله بدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه ويؤمنون به ويحفظونه، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوّة مشركو العرب: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، فإنّ دين الله غنيّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين[1].

إنّها حقيقة قديمة امتدّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول، وآمن بها، ويؤمن من يَقسم الله له الهداية، لما يعلمه من استحقاقه للهداية، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلوب العصبة المسلمة - أيّاً كان عددها - إنّ هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنّها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه.

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ١١٤٤).

إنّ المؤمن الفرد، في أيّ أرض، وفي أيّ جيل قويّ قوي، وكبير كبير، إنّه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشريّة، وفي أعماق التاريخ الإنسانيّ، وعضو في ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور[١].

- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ وهو التقرير الثالث: فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله، وهُداهم الذي جاءهم من عند الله فيه القدوة لرسول الله تعالى ومن آمن به.

فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه، وهذا الهدي وحده هو الذي يحتّكم إليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويُبشّر به قائلاً لمن يدعوهم: ﴿أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ للعالمين: لا يختصّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنّه هدى الله لتذكير البشر كافّة، ومن ثمّ فلا أجر عليه يتقاضاه، وإنّما أجره على الله[٢].

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، (٢/ ١١٤٥).

المبحث الثاني

قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الصافات

أولاً: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

سورة الصافّات من السور المكيّة التي تعني بأصول العقيدة الإسلاميّة، كالتوحيد والبعث والجزاء، شأنها كشأن سائر السور المكيّة التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان(١).

وتتحدّث السورة عن تعظيم الله تعالى من خلال القسَم بأعظم مخلوقاته، ثمّ الحديث عن جزاء المخلصين له، والمعرضين عنه، وعرض عظمة الله تعالى عن النقائض والعيوب(٢).

وتميّزت السور بقصر آياتها وسرعة إيقاعها، وكثرة المشاهد والمواقف، وتنوّع الصور والمؤثّرات فيها ممّا جعل سياقها غنيّاً باللفتات الأسلوبيّة والمقاصد الدلاليّة(٣).

واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، كنوح وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وموسى، وهارون، ولوط، ويونس (عليهم الصلاة والسلام)(٤).

---

(١) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص٢١٨.

(٢) الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحي، دار القلم، دمشق، ٢٠٢٢م، ص٢٢٥.

(٣) مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١م، ص٢١٨.

(٤) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط، ص٢١٩.

وإليك تفسير الآيات المتعلّقة بقصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤١]:

تفسير الآيات الكريمة:

١- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

أثبت الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّه مرسل من الله تعالى، وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متّى، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوّة والرسالة والدعوة إلى الله[١].

وما دام يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المرسلين منا قال ربّ العالمين فإنّه من المعصومين، فيما يُخبره عن الله، وفي تبليغ رسالاته باتّفاق الأمّة، ولهذا وجب الإيمان بكلّ ما أوتوه بخلاف غير الأنبياء، فإنّهم ليسوا معصومين كما عُصم الأنبياء، ولو كانوا أولياء الله، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة. و(الرسول) هو الذي أرسله الله تعالى، وكلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولاً. والعصمة فيما يُبلّغون عن الله ثابتة فلا يستقرّ في ذلك خطأ باتّفاق المسلمين[٢].

---

(١) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م، ص٩٤٧.

(٢) تفسير الآية الكريمة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ابن تيمية، الدار السلفية، ٢٠٠٦م، ص٧٩.

ونتّخذ هذه الآية في الاعتبار قبل الدخول في قصّته، ولنفهم قصّته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الإطار، والحذر في الطعن في منزلته كرسول، فالذي أرسله شهد له بالرسالة، ولم يعزله منها، ولم يُجرّده من منزلته حتّى النهاية(١).

فهو مجتبى، وهو رسول مُفضّل كغيره من الرسل الكرام، لذا فمهما كان متعرّضاً للابتلاءات من ربّه إلّا أنّه رسول مرسل، وإذا كانت بداية الآيات المتعلّقة بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تؤكّد على أنّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسول من المرسلين: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وكذلك جاءت مختتمة بأنّه رسول مُرسل إلى مائة ألف أو يزيدون ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؛ أي مع كلّ ما تعرّض له يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهو رسول مرسل بداية ونهاية لقومه الذي حُدّدوا في الآية الكريمة السابقة، وعليه؛ فإنّ يونس رسول، وله رسالة خالدة، مضامينها لا تخرج عمّا تحتويه رسالات الأنبياء والمرسلين، والتي بيّنها الله في كتابه العزيز القرآن والكريم(٢).

٢- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾:

- ﴿إِذْ﴾؛ واذكر إذ أبق، أو اذكر حين أبق.

أ- ﴿أَبَقَ﴾:

تُستعمل تحديداً للعبد الذي يهرب بسرعة وخوف من سيّده للتخلّص من الأذى والمشقّة، فشبّه خروج يونس من بين قومه وترك البلد(٣) بغير أمر الله تعالى، ومن غير علم قومه بخروجه، فكان فاعلاً ما يفعله الهارب الآبق(٤).

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢م، (١١/ ١٢٨٤٠).
(٢) يونس من وحي القرآن، د. عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، ط١، ٢٠١١م، ص٢٢.
(٣) تفسير القرآن الجامع، د. محمد هلال، دار المعارج، ٢٠٢٢م، (٩/ ٤٧٦).
(٤) التيسير في التفسير، أبي نصر القشيري، كلية الدعوة أصول الدين، ٢٠٠٦م، (٦/ ١٩٠).

- ﴿أَبَقَ﴾؛ أي هرب ولم يصبر على دعوة قومه، ولأنّه خرج من غير إذن، فكلّ عبد خرج من غير إذن سيّده يُقال عنه آبق[١].

فسيّدنا يونس ضاقت نفسه ممّن حوله، وسَئم دعوة قومه، ومهمّته أن يبقى معهم ويصبر عليهم، لكنّه سئم من صدّهم وتكذيبهم وسخريتهم، وعدم استجابتهم، فتركهم وتوجّه إلى مكان آخر، وتركهم ولم يؤمر بتركهم، ونبيّنا محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمر بالهجرة أمراً وكلّ حركاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر من الله عَزَّوَجَلَّ، وأمّا سيّدنا يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فغادر قومه دون أن يأخذ إذناً من الله عَزَّوَجَلَّ، ودون أن يأمره الله بمغادرتهم لذلك عاتبه الله عَزَّوَجَلَّ.

وذكر اللغويّون أن ﴿أَبَقَ﴾ بمعنى هرب، يقول الراغب:

أبق العبد يأبق إباقاً وأبق يأبق إذا هرب[٢].

- والإباق يختصّ بأنّه هروب العبد من سيّده من غير خوف وكدّ عمل[٣].

وأمّا الهرب فهو على العكس من ذلك؛ إذ يكون نتيجة خوف وكدّ عمل، ومشقّة زائدة. ولم يكن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كذلك، فبان أنّ تلك الفريدة هي أوفق أليق بحاله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كونه عبداً لربّه، وظهر أيضاً أنّ بين اللفظتين فرقاً دقيقاً لا يمكن أن يستخدم أحدهما مكان الآخر.

---

(١) مجالس التفسير، محمد عياش، دار نشر جامعة قطر، ٢٠١٩م، (٣/ ١٢٨٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م، ص٣، معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ١٩٧٩م، (١/ ٣٨).

(٣) التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ١٩٨٣م، (٩/ ٤٤٢).

- الإباق -كما يُشير السياق- قد استُعمل في خروج يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دون إذن ربّه، حيث وردت الفريدة في سياق الحديث عن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين ضاق ذرعاً من تكذيب قومه له، وكان قد أنذرهم بقدوم العذاب عليهم، فلمّا تأخّر عنهم العذاب ذهب مغاضباً لهم، متوجّهاً تجاه البحر دون إذن من ربّه، والهرب لا يحتاج إلى إذن أصلاً، فبين اللفظتين فرق آخر من هذه الجهة.

- تختصّ هذه الفريدة بخصوصيّة عجيبة إذ إنّها -كما يقول العلماء- لا تُقال إلّا من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنبيائه، ولا يصحّ من العباد أن يتلفّظوا بها عن الأنبياء في غير القرآن تأدّباً واحتراماً، يقول السمين الحلبي: الإباق: هروب العبد من سيّده. ولـمّا كان الخلق كلّهم عبيده قال تعالى في حقّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، إذ لله أن يقول ما يشاء، ولا يجوز لنا أن نقول أبق نبيّ، إنّما ذلك لله تعالى[1].

يقول الدكتور صلاح الخالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لا يُراد به حقيقة الهروب، كهروب العبد من سيّده، لأنّ هذا تصرّف يتنزّه عنه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إنّه نبيّ رسول، أمره الله بدعوة قومه، وهو لا يهرب من الدعوة ولا يتخلّى عنها، إنّما شُبّه فعله بفعل هروب العبد من سيّده، وأطلق عليه أنّه إباق لأنّه التقى مع إباق العبد، في الخروج سرّاً، والابتعاد عن الناس.

ووجّهنا خروجه بأنّه كان بعد أن أنذر قومه وقوع العذاب بعد ثلاثة أيّام، فلا داعي لأن يبقى عندهم، وليبحث عن قوم آخرين يدعوهم إلى الله.

---

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، د. عبد الله سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م، ص٢٢٤، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م، (١/ ٥٠).

لقد ظنّ أنّ الله لن يضيق عليه بإبقائه عند هؤلاء، بعد أن انتهت مهمّته فيهم، وسيوجّهه إلى أناس آخرين، ولذلك غادرهم سرّاً، وخرج من بينهم وهم لا يشعرون به وتباعد عنهم[١].

وُصف هذا الفعل منه بالإباق، لأنّه يُشابه إباق العبد في الظاهر، لكنّه يُخالفه في الحقيقة، فذاك هروب من الخدمة، وهذا انتقال إلى آخرين بدعوتهم[٢].

خرج يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي ظنّه واجتهاده أنّه لم يبق فائدة من بقائه في قومه، إنّهم لم يؤمنوا به، وإنّ العذاب آتيهم بعد ثلاثة أيّام، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لهم، فهل يبقى جالساً بينهم بدون دعوة؟

خرج من بينهم سرّاً، دون أن يعلموا به، وتوجّه نحو شاطئ البحر وكلّه أمل ورجاء أن يأتيه التوجيه من الله في الطريق، وفيما بعد، يأمره فيه بالخطوة التالية، وهو في هذا الاجتهاد لم يكن مخطئاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنّما كان مجتهداً متأوّلاً وكان حريصاً على الدعوة، راغباً في نصح الآخرين، وبما أنّ قومه رفضوا دعوته، وبما أنّ العذاب سيقع بهم بعد ثلاثة أيّام، فلماذا يبقى بينهم قاعداً عن الدعوة؟

فليبحث عن آخرين يدعوهم، والإذن من الله، وتوجيهه إلى الخطوة التالية يأتيه فيما بعد.

هذا اجتهاد مقبول منه، وتصرّف صواب، ولكنّه ترك ما هو أولى.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٤٥).

(٢) المصدر السابق، (٤/ ٤٦).

كان عليه ألا يتحرّك إلّا بتوجيه من الله، وأن يبقى في قومه حتّى يأتيه الإذن من الله، وألا يتعجّل الخروج على أن يوجّهه الله بعده.

كان عليه أن يفعل ذلك لأنّه نبيّ رسول، والله هو الذي يوجّهه حيث يشاء، ولذلك فعل بخروجه قبل التوجيه من الله خلاف الأولى، مع أنّ فعله صحيح، ولكن فرق بين الصحيح والأصح، وبين الجائز والأولى وبين الصواب والأصوب.

ولأنّه ترك ما هو أولى، ولأنّه غادَر قومَه بدون توجيه من الله، فقد عاتبه الله ولامه، ووصفه بأنّه أبق، وبأنّه مُليم وأوقع به محنة مرية[١].

ب- ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾:

لمّا غادر قومه توجّه إلى شاطئ البحر، وهناك وجد سفينة راسية تحمل ركّاباً، فصعد في السفينة، وتوجّهت بركّابها إلى عرض البحر، ووسط البحر، لم تتمكّن السفينة من متابعة السير، بسبب الحمولة الزائدة، ولا بدّ أن يُلقى براكب من رُكّابها في الماء لينجو الآخرون[٢].

- ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ هو السفينة المملوءة بالركّاب.

قال الإمام الراغب: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السفينة، ويُطلق على المفرد، والجمع: الفلك: مجرى الكواكب في الماء، وفَلْكَةُ المغزل: القطعة المستديرة منه، وفَلَك: ثدي الفتاة: إذا استدار[٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المفردات، ص٦٤٥، المعجم الوسيط، ص٧٠١.

وسُمّيت السفينة فُلكاً لأنّها مستديرة، ويُشبَّه بها كلّ شيء مستدير كفَلكةِ المغزل وثدي الفتاة.

والمشحون: المملوء وهو اسم مفعول، ولم ترِد ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ في القرآن إلّا وصفاً للسفينة المملوءة بالركّاب كما في هذه الآية[1].

فلمّا ركب مع غيره في الفلك المشحون، ثقُلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنّهم لم يجدوا لأحد مزيّة في ذلك، فاقترعوا على أنّ من قُرع وغُلب، أُلقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، فلمّا اقترعوا أصابت القرعة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2].

٣- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾:

لمّا صعد يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى السفينة كانت مشحونة مملوءة بالركّاب والبضائع، فألقوا ما فيها من متاع[3]، ولكنّها كادت أن تغرق، ودعت الحاجة إلى التخفيف من حمولة السفينة، بإلقاء أحد ركّابها في البحر، ولا حلّ إلّا بالقرعة، وأن يقترع ركّاب السفينة، فمن خرجت القرعة عليه، فلا بدّ أن يُلقى في البحر.

واستهم الركّاب على من يُلقى من السفينة، واقترعوا فيما بينهم، وقدّر الله الحكيم أن يُخرج بسهم أفضل الركّاب، يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٤٨).

(٢) تفسير السعدي، ص٩٤٨.

(٣) مجالس النور، (٣/ ١٢٨٤).

قال الإمام الراغب: السهم ما يُرمى به، وما يُضرب به من القِداح ونحوه، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

وفاعل (ساهم) يعود على يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أيّ: ساهم يونس مع ركّاب السفينة واقترعوا على ما يُلقى في البحر، فخرج سهم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم ترد كلمة (ساهم) ولا مشتقّات (سهم) إلّا في هذا الموضع[١].

وقد أجمع اللغويّون على أنّ (ساهم) بمعنى (قارع)، يقول السمين الحلبي: قوله ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع أي خرج السهم عليه لا له[٢].

وهذا ما ذهب إليه المفسّرون، يقول الشيخ صديق خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المساهمة أصلها المغالبة وهي الاقتراع، وهو أن يخرج السهم على من غلب، قال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي فقارع أهل السفينة قال: وأصله من السهام التي تجال، والمعنى فصار من المغلوبين[٣].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عبّر بها دون قارع؟

وفي هذا الاستعمال (فساهم) أسرار، لا توجد في (قارع)، منها:

- أنّ (ساهم) أسهل لفظاً وأخفّ نطقاً، كما أنّ فيها معنى لا يوجد في قارع إذ تنصّ على أنّ القرعة بها يكون على أمر من الأمور لهم اختلفوا فيه. ولعلّها أخذت

(١) القصص القرآني، (٤/ ٣٩).
(٢) عمدة الحفاظ، (٢/ ٢٦٣).
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن القنوجي، المكتبة العصرية، ٢٠٠٨م، (٨/ ١٢٧).

عن هؤلاء القوم، وكانوا أوّل من قارع بالسهام، والقرآن يعمد إلى اختيار اللفظة التي تقتضي على السياق إشعاعات لا تكون في غيرها ممّا يُقاربها، والله أعلم.

- الإيماء إلى أنّ ما حدث ليونس من الاقتراع عليه كان أمراً عجيباً فريداً في تاريخ الأنبياء، إذ لم يحدث لنبيّ آخر قطّ مثل هذا الأمر فعكست الفريدة تفرّد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الأمر كما عكست تفرّد موضعها في الذكر الحكيم.

- تشير الفريدة إلى عدالة ركّاب المركب إذ لم يزجّوا بيونس في البحر من أوّل الأمر بالرغم من أنّ يونس ركب الفلك متأخّراً، وهو مملوء كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، بل لجئوا إلى القرعة وهم يعلمون أنّ واحداً من المجموع ستقع عليه القرعة لا محالة، ولم يعترض أحد منهم على ذلك كما يُفهم من سياقات الآيات، وهذه كلّها أمور فريدة غريبة عجيبة أشارت إليها كلمة ﴿فَسَاهَمَ﴾[1].

وذكر بعض المفسّرين عندما ضربت الرياح والأمواج الفلك المشحون كان هذا إيذاناً عند القوم بأنّ من بين الركّاب راكباً مغضوباً عليه، لأنّه ارتكب خطيئة، وأنّه لا بدّ أن يُلقى من السفينة، فخرج سهم يونس، وكان معروفاً عندهم بالصلاح، ولكنّ سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه في البحر، أو ألقى هو نفسه[2].

إنّ القرعة والاقتراع من شرعة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي في قصّة كفالة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ لاختيار من يرعاها، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص٢٢٥.
(٢) في ظلال القرآن، (٥/ ٢٩٩٨).

إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ وأقلامهم جمع قلم، وهي القِداح والسهام. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وكانوا يقترعون بها في المشكلات، بأن يكتبوا عليها أسماء المقترعين أو أسماء الأشياء الـمُقترع عليها(١).

وهذا الشرع الإلهيّ أقرّه القرآن الكريم، وطبّقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيرته الشريفة، وفي سنّته النبويّة(٢).

أ- وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن:

- الأوّل: كان النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيّتهن خرج سهمها أخذها معه(٣).

- والثاني: أنّ النبيّ رُفع إليه أنّ رجلاً أعتق ستّة أعبد، ولا مال له غيرهم، فأقرع بينهم، فأعتق اثنين، وأرق أربعة.

- والثالث: أنّ رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست، فقال: اذهبا وتوخّيا الحق، واستهما، وليُحلّل كلّ واحد منكما صاحبه.

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص٣٤٧، تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، أبو عبد الله القرطبي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م، (٥/ ١٣١).

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة بريل، ٢٠٢٤م، (٣/ ٦).

(٣) صحيح البخاري، دار ابن كثير، محمد بن إسماعيل، البخاري، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢ه- ٢٠٠٢م، (٣/ ٢٠٨).

فهذه ثلاثة مواطن، وهي القسم في النكاح والعتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال، وحسم داء التشهّي. والحقّ عندي أنّ القرعة تجري في كلّ مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها.

والاِقتراع على إلقاء الآدميّ في البحر لا يحوز، وإنّما كان ذلك في يونس خاصّة، فكيف المسلم؟ فإنّه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يُرمى به في النار أو البحر، وإنّما تجري عليه الحدود والتعازير على مقدار جنايته[1].

ب- وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

سنّة الاقتراع في أسفار البحر كانت متّبعة عند الأقدمين، إذا ثقلت السفينة، بوفرة الراكبين، أو بكثرة المتاع، وكانت القرعة طريقاً من طرق القضاء، عند التباس الحق، أو عند استواء عدد في استحقاق شيء، وهو طريقة إقناعيّة كان البشر يَصيرون إليها لفصل التنازع، يزعمون أنّها دالّة على إرادة الله تعالى عند الأمم المتديّنة، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام.

وقد اقتصرت الشريعة الإسلاميّة في اعتبارها على أقلّ ما تُعتبر فيه، مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسمين، إذ تشاحّوا في أحدها، قال ابن رشد في المقدّمات: "القرعة إنّما جُعلت تطييباً لأنفس المتقاسمين؛ وأصلها قائم في كتاب الله لقوله تعالى في قصّة يونس".

جـ- قال القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ **في الفروق:**

متى تعيّن المصلحة أو الحق في جهة لا يجوز الاقتراع، لأنّ في القرعة ضياع الحق، ومتى تساوت الحقوق أو المصالح فهذا موضوع القرعة، دفعاً للضغائن

(١) أحكام القرآن، ابن العربي المالكي، دار الفكر العربي، ٢٠١٩م، (٤/ ١٦٢٢).

فهي مشروعة بين الخلفاء إذا استوت فيهم الأهليّة للولاية، والأئمّة والمؤذّنين، إذا استووا، والتقدّم للصف الأوّل في صلاة الجماعة عند الازدحام، وتغسيل الأموات عند تزاحم الأولياء وتساويهم، وبين الحاضنات والزوجات في السفر، والقسمة، والخصومة، عند الحكّام[١].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو يعلم الناس ما في النداء (الأذان) والصفّ الأوّل، ثمّ لم يجدوا إلّا أن يستهموا عليه لاستهموا**»[٢].

د- وقال الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطريفي:

مشروعيّة القرعة عند الحاجة إليها، ومن أدلتها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهاتان الآيتان -يقصد آية آل عمران المذكورة وقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] - أصل في مشروعيّة القرعة في القرآن كما نصّ على ذلك الشافعي وغيره[٣].

وقال في هذه الآية معان جليلة منها:

- ارتكاب المفسدة الدنيا لدفع العُليا، وأنّ الضرر العام أشدّ من الضرر الخاص.

---

(١) التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، د. رفيق يونس المصري، دار القلم، ٢٠١٧م، ص٢١٤.

(٢) البخاري، (١/ ١٢٦)، رقم ٦١٥.

(٣) الأم، الإمام محمد بن إدريس الشافعي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م، (٥/ ١١٩).

- منها جواز الأخذ بغلبة الظن، فمن كان في الفُلك، وغلب على ظنّهم الهلاك عمِلوا بذلك ولو بإزهاق نفس.

- ومنها استواء نبيّ الله يونس مع غيره في الحقوق، وفي القضاء والحكم، فلم يستثن نفسه، ولم يطلب ذلك لمقامه ونبوّته[١].

وقال: ولا يقترع الناس إلّا عند التنازع وتساوي الحقوق واشتباهها، وقد ترجم البخاري على ذلك بقوله: (باب القرعة في المشكلات وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]).

وأمّا عند ظهور صاحب الحقّ فلا قرعة، لأنّ القرعة شُرعت لرفع النزاع والخصومة، وشحّ النفوس وطمعها، وهذا لا يكون إلّا عند تساوي الحقّ واشتباهه بين مُدّعيه، وأمّا عند ظهور صاحب الحقّ فالقرعة انتزاع للحقّ بالباطل، وأكل له بغير حق، وإنّما تنازع بنو إسرائيل في مريم؛ لأنّها بنت سيّدهم عمران، فكلّ واحد طمع في كفالتها، والسبق في حصانتها احتساباً وجاهاً.

والقرعة جائزة، بل قد تُستحبّ وتجب إذا كان النزاع لا يُرفع إلّا بها، فما لا يُدفع المحرّم إلّا به فهو واجب إذا لم يكن محرّماً هو في ذاته، وما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب[٢].

ونقل ابن المنذر عن أبي حنيفة: أنّه جوّزها وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنّا تركنا القياس في ذلك، وأخذنا بالآثار والسنّة.

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المنهاج، ٢٠١٧م، (٤/ ٢٠١٤).
(٢) التفسير والبيان لأحكام القرآن، (٢/ ٦١٧).

والعمل بالقرعة بلغ التواتر في السنّة وهو قطعيّ في الكتاب، قال أبو عبيد: وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس، وزكريّا، ونبيّنا محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

وجاء عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أمّ العلاء الأنصاريّة، قالت: نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمهاجرون معه المدينة في الهجرة فتشاحّتِ الأنصار منهم أن ينزلوهم في منازلهم حتّى اقترعوا عليهم فطار لنا عثمان بن مظعون في القرعة، تعني: وقع في سهمنا[٢].

وأقرع سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أُصيب المؤذّن بالقادسيّة، فاختصم الناس على الأذان[٣].

وأقرعت صفيّة بنت عبد المطّلب بين شقيقها حمزة وبين أنصاريّ على ثوبين، أيّهما أحقّ بالثوب الكبير، فيُكفّن به، وكان ذلك لـمّا قُتلا ومُثّل بهما في غزوة أُحد، وكانت صفية أخت حمزة عمّة النبيّ[٤].

وصفيّة عمّة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنة خالته، لأنّ أمّها أخت أمّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي هالة بنت وهب، أخت آمنة بنت وهب أمّ النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥].

إنّ القرعة شائعة، ومنتشرة في العالم، وفي الأنظمة والقوانين المعاصرة، ولها مجالات كثيرة حتّى بين فرق الرياضة وغيرها ممّا يدلّ على أنّها تشريع له، كما لها تطبيق تاريخي في حياة الإنسان.

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٦١٨).

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، (٣/ ٣٩٦).

(٣) تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، بيت الأفكار، ٢٠٠٩م، (٣/ ٥٦٦).

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م، رقم ١٤١٨، (١/ ١٦٥).

(٥) التفسير والبيان لأحكام القرآن، (٢/ ٦٢٠).

وقد تحدّث الفقهاء عن القرعة والاقتراع، وبيّنوا شروطها، والحالات التي تجوز فيها، والتي لا تصحّ ولا تجوز[١].

- ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]؛ الفاء للترتيب والمباشرة، من المدحضين: المدحض هو الخاسر أو المغلوب. فالمعنى: كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من المغلوبين في القرعة[٢].

والدحض أصله الطين الذي يزلق القدم، وأدحضه أزاله عن مكانه[٣].

وأصل (دحض) يدلّ على زوال وزلق[٤].

والإدحاض: جعل المرء داحضاً، أي: زالقاً غير ثابت الرجْلين، وهنا استعارة للخسران والمغلوبيّة[٥].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٢-١٤٤]:

تفسير الآيات الكريمة:

١- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾:

وهكذا بدأت محنة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بتقدير من الله الحكيم سبحانه، وأُلقى من السفينة إلى البحر، فالله رحيم بيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتّى في ابتلائه وهو يريد أن يبتليه

(١) قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، مصطفى العدوي، دار بلنسية، ٢٠١٢م، ص٣٦، شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص٣٤٨.

(٢) تفسير القرآن الثري الجامع، (٩/ ٤٧٧).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) التفسير المحرر، إشراف علوي السقاف، (٣٧/ ٥٩٨).

(٥) التحرير والتنوير، (٩/ ٤٤٥).

لا أن يقضي عليه، ولهذا يسّر له أسباب النجاة بحكمته عندما أُلقي من السفينة، فما أن وصل الماء كان الحوت ينتظره بأمر من الله سبحانه، ونلاحظ في التعبير القرآني عن الحادثة سرعة وتتابع لقطاتها:

- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾.
- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

فالأفعال معطوفة بحرف الفاء: (فساهم، فكان، فالتقمه)

والفاء تدلّ على الترتيب مع التعقيب الفوري، فاللقطات كانت متتابعة سريعة، بمجرّد أن ركب السفينة كانت القرعة والمساهمة، وبمجرّد أن خرج سهمه أُلقي من السفينة، وبمجرّد أن أُلقي من السفينة التقمه الحوت، وهذا من حكمة الله ولطف تدبيره، فقد أمر الحوت أن يتوجّه نحو السفينة وأن يفتح فمه، وبمجرّد أن يُلقى يونس منها، وفور وصوله للماء عليه أن يلتقمه، لئلّا يسبق إليه حوت آخر، لا يعرف من هو، فيجعله وجبة غذائيّة له[1]. والحوت جنديّ من جنود الله، وما يعلم جنود ربّك إلّا هو، فسارع بتنفيذ أمر الله.

ومن لطائف التعبير القرآنيّ أنّه عبّر عن ابتلاع الحوت له بفعل (التقم)، وهو فعل مقصود، ولم يَرد في غير هذا الموضع من القرآن.

يُقال: لَقِم الشيء يَلْقَمُه: إذا أكله بسرعة، والتقم الشيء، يلتقمه: إذا ابتلعه[2].

وأمر الله الحوت أن يلتقم يونس التقاماً وأن يبتلعه ابتلاعاً، فنفذ أمر الله، ولذلك لم يُطبق عليه فكّيه، ولم يغرُز فيه أنيابه، ولم يمضغه بفمه، ولم يكن فمه إلّا طريقاً

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥٠).
(٢) المعجم الوسيط، ص٨٣٥.

يمرّ به يونس ليستقرّ في بطن الحوت. هذا هو المعنى المصوّر الذي يوحيه فعل: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾.

ولمّا استقرّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت أجرى الله له معجزة أخرى، حيث أمر الجهاز الهضميّ للحوت ألا يهضم يونس، وألا يُفرز العصارات الهاضمة عليه، فهذا الوافد إلى المعدة ليس وجبة غذائيّة وهو لا يصلح للهضم، وما هو إلّا مُقيم في المعدة إقامة يسيرة ليُغادرها بعد ذلك[١]، وهذه المعدة أشبه أن تكون قارب نجاة إذا ابتلعه بدون أن يُهشّم له عظماً أو يخدش له لحماً فبقي في جوفه[٢].

فبطن الحوت قارب إنقاذ لإنقاذه، ولا يجوز لمعدته أن تهضمه.

وتلقّت معدة الحوت أمر الله راضية، ونفّذته، فلم تُفرز على يونس عصارتها الهاضمة، وبقي يونس حيّاً فيها[٣].

مع أنّ الحوت اتّصف بالذكاء والسرعة والحجم والقوّة، ممّا تجعله من أكثر الحيوانات البحريّة افتراساً، فهو يأكل كلّ ما يستطيع الإمساك به، وهي تستمتع بالتهام ذوات الدمّ الحار، وتتمتّع بحاسّة سمع قويّة، وتستطيع سماع أصوات لا يستطيع الإنسان سماعها، وتستطيع أيضاً التحديد الدقيق لمكان مصدر الصوت.

وهذا الحوت أحد مخلوقات الله العجيبة، ومن معجزات الخالق العظيم، حيث توجد أنواع من الحيتان التي تعيش في قلب المحيطات والبحار الكبرى،

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥١).

(٢) رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م، (٢/ ٢٤٤).

(٣) القصص القرآني، (٤/ ٥١).

حيث يتمتّع الواحد منها بمعدة تستطيع أن تستوعب عشرين رجلاً مرّة واحدة كوجبة واحدة، تطحن العظام واللحوم وتحوّلها إلى مادّة غذائيّة[١].

لكنّ أمر الله صدر، واستجاب الحوت لأمر ربّه فيما يتعلّق بمعجزة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لمّا أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خُذْه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً، فأخذَه، ثمّ هوى به إلى مسكنه في البحر، فلمّا انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إنّ هذا تسبيح دوابّ الأرض، فسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربّنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غُربة، قال: ذاك عبدي يونس، عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كلّ يوم عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾**»[٢].

وعن عبد الله بن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نودي الحوت: إنّا لم نجعل يونس لك قُوتاً، وإنّما جعلنا بطنك له حِرزاً ومسجداً[٣].

وعن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في رواية أخرى:... وأوحى الله إلى الحوت: لا تؤذي منه شعرة، فإنّي جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك[٤].

---

(١) قصص الحيوان في القرآن، د. خالد الزواوي، مؤسسة حورس الدولية، ٢٠١١م، ص١٤١.

(٢) أخرجه البزار، (١٥/ ٣٤)، رقم ٨٢٢٧، قال البزار وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه وبهذا الإسناد، وقال الهيثمي رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) تفسير البغوي، (٤/ ١٥٢).

(٤) المصدر السابق نفسه.

وعن وهب بن منبّه من طريق المنذر بن النعمان، قال: أُمر الحوت أن لا يضرّه، ولا يكلّمه[١].

لقد تحققت أمور عجيبة في قصة عَلَيْهِ السَّلَامُ، والحوت الذي صاحبه، ومن هذه الأمور العجيبة، إضافة إلى ما ذكرنا:

- أن الحوت قد اِلتقم يونس، واللوم يملأ نفسه، لكن لم يكن لوما على التقام الحوت له بالأسباب السابقة على التقامه من قبل أن يلتقمه الحوت: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

وهذا الالتقام يُعدّ آية من آيات الله العظيمة، وذلك لأن الالتقام، يعني أخذ الشيء كما هو عليه، دون إيذاء يلحقه، فالالتقام، لا التهام فيه، أي لا يأتي بالضرر، ولأن الالتقام لا يأتي منه الضرر، التُقم يونس التقاماً، فأُخذ قبل أن يسقط في مياه البحر، أي أخذ وهو على حالة القفز إلى المياه، ثمّ ابتلع ابتلاعاً بحيث لا تدميه الأنياب، ولا يُمضغ بالأسنان، ولا يُدمج ويُطحن بالأضراس ولا يغمره اللعاب فيختنق[٢].

وهذه حسابات ربّانيّة محضة خاضعة لقدرة الله، وحكمته، ومشيئته، وعِلمه، وكمال صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلّ ما حدث ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو هيّن ويسير بالنسبة لإرادة الله وقدرته.

إنّ الله تعالى فعّال لما يُريد، وهو على كلّ شيء قدير، فالله هو الذي أمر الحوت أن يتوجّه نحو السفينة، ففعل، وأمره أن يفتح فمه استقبالاً لنبيه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففعل،

---

(١) موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، (١٨/ ٧٠٠).

(٢) يونس من وحي القرآن، د. عقيل حسين، ص٦٦.

وأمر فمه ألا يمضغ يونس ففعل، وأمر معدته ألا تهضم يونس، فكان ذلك، والله هو الذي قدّر ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعيش حيّاً في بطن الحوت. وإنّ الأمر كلّه معجزات وخوارق، ويعجز عنها البشر، ولكنّها مفهومة؛ لأنّها من فعل الله.

وأشارت الآية إلى سبب هذه المحنة التي قدّر الله أن يمرّ بها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

- ﴿مُلِيمٌ﴾؛ اسم مفعول، فعله الماضي: أَلام، تقول ألام، يُليم، فهو مُليم، أي: ارتكب ما يستحقّ عليه اللوم.

وجملة: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ جملة حاليّة في محلّ نصب حال، أي: أمر الله الحوت أن يلتقم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ويجعله في بطنه، لأنّه مُليم، فعل ما يستحقّ له أن يُلام عليه، ومن لوم الله له أن أوقع به هذا البلاء[١].

فمغادرته لقومه دون إذن من الله تعالى، وانتقاله إلى موقع آخر دون توجيه من الله، فرغم أنّ فعله صحيح وصواب لكنّه كان خلاف الأولى والأصح والأصوب[٢]. ونظراً لعلوّ مقامه تعرّض للوم والمؤاخذة من الله تعالى، وحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين[٣].

- ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ آتٍ بما يُلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه في السفينة بلا إذن من ربّه[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) التفسير الموضوعي، (٧/ ١٧٢).

(٤) تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٠م، ص٤٦٩، التفسير المنير في العقيدة =

- ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ فعل ما يُلام عليه[١].

واستقرّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت، وصار الحوت يتحرّك تحت الماء، وينتقل من مكان إلى آخر، وكأنّه (غوّاصة) تحمل يونس بأمان وتقيه من الأخطاء والأهوال، وتفقّد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه، فوجد نفسه في بطن الحوت، والحوت يغوص تحت الماء، وهو حوت من آلاف الحيتان التي تسبح في أعماق البحار[٢].

إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يدرك أنّه لا ملجأ من الله إلّا إليه، وأنّه لن يُنقذه إلّا الله، ولن يُفرّج كربه إلّا الله، ولذلك أقبل على الله واتّصل به، فذكره، وسبّحه، وناداه، واستغاث به، وتضرّع إليه.

وقد سجّلت آيات القرآن هذا اللجوء الإيماني إلى الله، وجعلته معلّماً هادياً، وأسوة حسنة للمؤمنين بعد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقتدون به عندما يمرّون بضيق أو محنة أو غمّ أو كرب[٣].

٢- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

أ- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾:

أي: لولا أنّ يونس كان مسبّحاً لله، لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وحان أجله في داخله.

= والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، (١٢/ ١٥٥).

(١) العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد، مكتبة الرشد، ٢٠١٥م، ص٢٤٣.

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٥٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

إنّ تسبيحه لله سبب، قدّر الله أن ينجّيه من أجله، ولو لم يتحقّق هذا السبب لما كُتب ليونس النجاة.

إنّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان ملازماً للتسبيح في بطن الحوت. واسم الفاعل ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ يدلّ على الثبات والاستقرار، أي: أنّ الحالة التي عبّر عنها اسم الفاعل حالة دائمة لصاحبها، فقد كان مسبّحاً لله وهو في وسط قومه، وعند الخروج، ولـمّا استقرّ في بطن الحوت.

لقد كان له رصيد كبير من ذكر الله وتسبيحه، وهذا الرصيد سبب نافع إيجابي قدّر الله أن يرحم به يونس، وأن يُنقذه من هذه المحنة، فقد عرف الله في الرخاء، فعرفه الله في الشدّة، وذكر الله في الرخاء، فنفعه هذا عند الشدّة، وفرّجها الله عنه بسبب ذلك[1].

- ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس، وقيل هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقيل: من المصلّين.

وعن ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة[2].

وعن قتادة كان كثير الصلاة في الرخاء، قال: وكان يُقال: إنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صُرع وجد مُتّكأً[3].

---

(١) المصدر السابق، (٤/ ٥٤).

(٢) تفسير الطبري، (١٧/ ٣٢٠).

(٣) تفسير الكشاف، (٧/ ٣٦١).

وهذا ترغيب من الله عَزَّوَجَلَّ في إيثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته وجمه همّه، لتقييد نعمته بالشكر في وقت الـمُهلة والفُسحة، لينفعه ذلك عنده في المضايق والشدائد[١].

- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣]؛ يؤخذ أيضاً من قصّة هذا النبيّ الكريم، أنّ أعمال البرّ السابقة التي عملها المرء في حياته تنفعه وقت الملمّات والشدائد والمصائب، ففريق من المفسّرين قالوا: كان من المسبّحين في سابق وقته قبل أن يلتقمه الحوت، فنفعه سابق عمله في نجاته من بطن الحوت، ولا يمنع أيضاً أن يكون قد أكثر من التسبيح ببطن الحوت، وكان هذا أيضاً من أسباب نجاته[٢].

على أنّ قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: من المكثرين من الصلاة والتسبيح والذاكرين الله كثيراً[٣]، ويشهد لهذا حديث ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لي: «**يا غلام، إنّي معلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة**»[٤].

ومن الشواهد صنع الثلاثة أصحاب الغار الذين انطبقت على فم غارهم صخرة، فعن ابن عمر -كما ورد في البخاري ومسلم-: «**بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل فانحطّت على فم الغار صخرة، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها، يفرجها عنكم**»:

- وتوسّل أحدهم ببره لوالديه.

---

(١) المصدر السابق نفسه؛ الحلية لأبي نعيم، (٢/ ٣٣٩).

(٢) قصة نبي الله يونس، مصطفى العدوي، ص٣٤.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٩٠م، (١/ ٣٣٣).

(٤) سنن الترمذي، رقم ٢٥١٦.

- والثاني: بإعطاء الأجير حقّه.

- والثالث: بامتناعه عن الفاحشة والزنا لـمّا ذُكّر بالله.

ففرج الله عنهم(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل فليفعل**»(٢).

إنّ عبادة الرخاء، والطاعة في زمن السرّاء، هي السبيل إلى تبديد ظلمات العسر والقلق التي تُفسد طمأنينة النفوس، وإزاحة صخرة الكرب والهموم والغموم الجاثمة فوق صدور الكثير من الناس(٣).

إنّ العبد الربّاني يجتهد ويحرص على خصلة من عمل صالح يُخلص فيها بينه وبين ربّه، ويدّخرها ليوم فاقته وفقره، ويسترها على خلق الله لكي يصل إليه نفعها، وهو أحوج ما يكون إليه(٤).

إنّ العبد إذا كانت له علاقة خاصّة في طاعة الله في حال الرخاء، فالله يشكر له ذلك، ويعرِفه في حال الشدّة بالكليّة أو تخفيفها(٥).

- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ والمراد بالمسبّحين هنا: المصلّين الذاكرين لله، المنزّهين له عن النقص، فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان هذا دأبه في الرخاء،

---

(١) صحيح قصص القرآن، حامد أحمد البسيوني، دار الإرشاد، ٢٠٠٥م، ص٢٨٦.

(٢) البخاري، (٥/ ٤٤٩)، رقم ٤٥٠.

(٣) في قصصهم عبرة، علي حسن العبيدلي، كلمات للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م، ص١٩٣.

(٤) القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٠٥م، ص٧١٦.

(٥) قصص القرآن، السعدي، جمعها فايز سياق، ص٢١٢.

فأنجاه الله عند الشدّة، وأمّا نسيان الله في حال الرخاء والإعراض عن هديه، فإنّ ذلك يكون سبباً في عدم استجابة الله له عند الشدّة، ولهذا ذكر القرآن عن فرعون الذي كان طاغياً كافراً بالله بأنّه لـمّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١][1].

- مكانة التسبيح عند الله:

إنّ تسبيح يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يفتح لنا آفاقاً لفهم مكانة التسبيح عند الله، وحديث القرآن عنه.

- قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

لاحظ أوّلاً هذه الآية كيف استوعبت التسبيح سائر اليوم، قبل الشروق، وقبل الغروب، وآناء الليل -التي هي ساعاته- وأوّل النهار وآخره. ماذا بقي من اليوم لم تشمله هذه الآية بالحثّ على التسبيح؟

ولذلك شرّع الله في هذه المواضع أعظم التسبيح وهو (الصلاة) والرضا في هذه الآية عام في الدنيا والآخرة[2].

- وتأمّل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

---

(١) مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠١٨م، ص٣١٥.

(٢) رقائق القرآن، إبراهيم السكران، دار الحضارة، ٢٠١٤م، ص١٢٥.

فانظر كيف أرشدت هذه الآية العظيمة إلى الدواء الذي يُستشفى به ضيق الصدر، فكم في الدنيا من صدور أضناها الأحزان، وكم في الدنيا من وجوه حزينة بما تخفي من أوجاع نفسيّة، وتأمّل كيف جعلت الآية التسبيح ترياقاً تستطبّ به النفوس، وتداوى به الغموم، وتثلج به غصص الأحشاء[1].

- وكلّما قرأت قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

- وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

قلت في نفسي: سبحان من جعل النفوس ترتوي بالرضا من ينابيع التسبيح[2].

ومن أعجب المعلومات التي زوّدنا بها القرآن أنّنا نعيش في عالم يعجّ بالتسبيح من حولنا، تسبيح الكائنات في هذا العالم مشهد مهيب صوّره القرآن.

تأمّل مثلاً كيف أخبرنا الله أنّ الرعد يُسبّح:

- ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

- وأنّ الجبال والطير تسبّح: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

بل أخبرنا خبراً عامّاً أنّ كلّ الكائنات تسبّح لله بما فيها السماوات نفسها والأرض نفسها وما فيها من مخلوقات، كلّها تسبّح لله، لكنّ تسبيحها لغة لا نفقهها،

(١) المصدر السابق، ص١٢٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

كما يقول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويزيد القرآن من تفاصيل جلالة هذا المشهد فيخبرنا بأنّ كلّ كائن من هذه الكائنات له مسلك خاص في تسبيح الله.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنطق الجماد بأصوات يفهمها من يفهمها من الآدميّين، كما قال عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [سورة ص: ١٨].

فإذا استشعر المؤمن الذي شرّفه الله باليقين بهذا القرآن الذي يتعامل مع أخبار القرآن كأنّما يشاهدها رأي العين، إذا استشعر هذا المشهد وأخذ يجيل عينيه في الكون من حوله، فقلّب وجهه في السماء، وينظر في فجاج الأرض، ويمسك الأشجار بيديه، ويتأمّل الطير فوقه وهنّ صافّات ويقبضن، ويستحضر تلك الكائنات المدهشة التي تعيش في قيعان المحيطات، ثم يستعيد كلام الله عن هذه الكائنات كلّها تسبيح لله، فإنّه لا يكاد يطيق المهابة، والإحساس بالعظمة الإلهيّة التي تتوارد على قلبه، وتكاد تعتقل لسانه[1].

فإذا أجمع المؤمن في قلبه هذا المشهد السابق في تسبيح الكائنات لله، ثمّ أضاف إليه أنّ الله اختار أن يبدأ كثيراً من السورة بالتسبيح، كما استفتح الله بالتسبيح سبع

(١) المصدر السابق، ص١٣٠.

سور من القرآن، وهي: سورة الإسراء، وسورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، وسورة الجمعة، وسورة التغابن، وسورة الأعلى.

وإذا أضاف المؤمن إلى ذلك أنّ الصلاة التي هي أعظم شعائر الإسلام، جعل الله في ركوعها التسبيح (سبحان ربّي الأعلى).

وإذا أضاف المؤمن إلى ذلك تسابيح الأنبياء، كقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان وظيفة نبوّته[١]، قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

فطلب موسى مساعداً له في رسالته، وجعل وظيفة هذه الرسالة أن يُسبّحا الله كثيراً، ويذكراه كثيراً[٢].

وحديثنا عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي عاش مع التسبيح بأنواعه أثناء دعوته لقومه، وعند خروجه، وعند ركوبه السفينة، وعند التقام الحوت له، فقد فزع إلى التسبيح في اللحظة الحالكة.

- قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقد كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في تسبيحه لله لا يتوقّف ولا يهدأ، ولا ينقطع بكاؤه، لم يكن يأكل أو يشرب أو يتحرّك، كان صائماً طعامه هو التسبيح[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص١٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أنبياء الله، أحمد بهجت، ص٢١٧.

وربّما: سمعت الأسماك والحيتان والنباتات وكلّ المخلوقات التي تعيش في أعماق البحر صوت تسبيح يونس، كان تسبيح يونس يصدر من جوف الحوت الذي هو بداخله، وكأنّي: بهذه المخلوقات التي كانت حول الحوت الذي فيه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تقوم بتسبيح الله هي الأُخرى، كلّ بطريقته الخاصّة، ولغته الخاصّة، وكأنّك تشاهد في قاع البحر مهرجاناً عظيماً من الحيتان والأسماك والحيوانات البحريّة والطحالب، والصخور، والرمال، وهي تسبّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

وقد بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ تسبيح يونس هو الذي كان سبباً في نجاته في بطن الحوت، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

عندما يتأمّل المؤمن مثل هذه المنزلة للتسبيح عند مخلوقات الله كلّها، وعند الملائكة الذين قال فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

ولقد أخبرنا الله عن لهج ألسنة أهل الجنّة السعداء بالتسبيح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

---

(١) المصدر السابق، ص٢١٧.

عندما يتأمّل ذلك كلّه يدركه شيء من الألم على فوات كثير من لحظات العمر دون استثمارها بالتسبيح، وأيّ شيء أجمل من قضاء دقائق الانتظار والطريق ولحظات الصمت في تسبيح؟[١].

إنّ قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عبَرها وفوائدها ودروسها، السير على منهج الله، ولزوم الذكر والتسبيح والصلوات وأذكار الصباح والمساء، والتفكّر في هذا الكون الجميل، والثناء على خالقه العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ب- ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

لولا إرادة الله، لكان بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة[٢].

- ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾؛ عقوبة فيه[٣].

- ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ إلى يوم القيامة، بأن يُميت الله الحوت حين ابتلاعه، ويُبقيهما في قعر البحر، أو بأن يختطف الحوت في حجر في البحر أو نحوه، فلا يطفو على الماء، حيث يبعث يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوم القيامة من قعر البحر[٤].

وأمّا مدّة مكثه في بطن الحوت فقد قيل في ذلك أقوال، منها:

- عبد الله بن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: مكث يونس في بطن الحوت أربعين يوماً[٥].

---

(١) رقائق القرآن، ص١٣٣.
(٢) موسوعة التفسير بالمأثور، (١٨/ ٧٠٦).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) التحرير والتنوير، (٩/ ٤٤٥).
(٥) أخرجه الحاكم، (٢/ ٥٨٤).

- وعن سعيد بن جُبير، قال: لبث يونس في بطن الحوت سبعة أيّام، فطاف به البحار كلّها، ثمّ نبذه على شاطئ دجلة[١].

وقال الطاهر بن عاشور: وكان غرقه في البحر المسمّى بحر الروم، وهو الذي نسمّيه البحر الأبيض المتوسّط، ولم يكن بنهر دجلة كما غلط فيه بعض المفسّرين[٢].

- وقال الضحّاك بن مزاحم: عشرين يوماً[٣].

- وعن عامر الشعبي قال: التقمه الحوت ضحىً، ولفظه عشيّة، ما بات في بطنه[٤].

- وقال عطاء: سبعة أيّام[٥].

- وقيل: ثلاثة أيّام[٦].

وقال الدكتور فضل حسن عبّاس -رَحِمَهُ اللَّهُ وجميع أموات المسلمين-: ولا تعنينا المدّة التي مكث عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت التي اختلف فيها المفسّرون، ولا دليل على شيء من ذلك كلّه، ولعلّي أرجّح القول بأنّ ابتلاعه لم يزد على يوم أو بعض يوم[٧].

---

(١) موسوعة التفسير المأثور، (١٨/ ٧٠٧).
(٢) التحرير والتنوير، (٩/ ٤٤٥).
(٣) موسوعة التفسير المأثور، (١٨/ ٧٠٦).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، محمد الفقي، مكتبة وهبة، ١٩٨٩م، ص١٩٥.
(٧) قصص القرآن الكريم، د. فضل عباس، ص٦٣٣.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٨]:

تفسير الآيات الكريمة:

١- ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾:

ومن التعبير القرآني ندرك أنّ الله المهيمن على كلّ شيء له الحكمة البالغة حيث قال: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾، ولم يقل (نبذه الحوت)، سبحانه هو الملهم لكلّ فاعل فعلَه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠][(١)].

والآيات التي بعدها التي بيّنت أفعال الله منسوبة إليه ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾، وهذه التعبيرات القرآنيّة تدلّ على العناية الإلهيّة الفائقة بيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾؛ النبذ إلقاء الشيء وطرحه[(٢)].

- ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾؛ العراء: هو الأرض الواسعة التي لا نبات بها ولا معلَم يمكن أن يستر التواجد فيها[(٣)].

والعراء: الأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا نباء ولا بناء عليها، وهي صفة لشاطئ البحر، الذي يكون غالباً رمليّاً، لا ينبت عليه نبات ولا شجر[(٤)].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، دار طوق النجاة، ٢٠٠٧م، (٢٤/ ٢٧٤).

(٣) من آيات الإعجاز العلمي والإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، دار المعرفة، ٢٠١٤م، (٢/ ٨١٧).

(٤) القصص القرآني، (٤/ ٦٣).

وعندما تراجع قواميس اللغة فيما جاء من تعريف العراء لا يقتصر على معنى واحد، وإنّما هي معان متداخلة تعطي اللفظة أبعاداً كثيرة ومتّسعاً من الظلال التي تعطي أبعاد اللفظة، وعليه:

- فالعراء: ما اتّسع من فضاء الأرض.
- والعراء: ما استوى على ظهر الأرض.
- والعراء: المكان الفضاء لا يستتر فيه شيء.
- والعراء: الأرض الواسعة.
- والعراء: الأرض المستوية المصحّرة.
- والعراء: الأرض التي ليس فيها شجر ولا جبال ولا آكام ولا رمال.
- والعراء: كلّ شيء أُعري من سترته.

فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نُبذ في هذه الأرض العراء الفسيحة المستوية المنبسطة، والممدودة الواسعة، وهي خالية من النبات والجبال والأشجار، ولـمّا كان حال العراء وصورتها ووصفها هذه الحال، فإنّ حكمة الله تعالى اقتضت أنّه لا يناسب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في الوقت الذي نُبذ به من بطن الحوت حال من المحيط الخارجي الذي لفظه به الحوت إلّا هذا العراء التي تتناسب مع السقم الذي انتاب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أثناء لبثه في بطن الحوت، حيث أصابه السقم[1].

ونلاحظ أنّ الحوت وقف على شاطئ البحر بأمر الله، وأخرج يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من بطنه بأمر الله، وألقاه على الشاطئ بأمر الله، وعاد إلى مياه البحر بأمر الله،

(١) يونس من وحي القرآن، ص٢٥٥.

وبهذا انتهت محنة يونس في البحر وفي بطن الحوت، بأمر الله وخرج منها بأمان، برعاية وتدبير الله لكنّه وقع في محنة جديدة، سيرعاه الله فيها، ويُدبّر له تجاوزها والخروج منها بأمان.

– ألقاه الحوت على شاطئ البحر وهو مريض: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ والسقيم هو المريض، وتخيّل معنا منظر إنسان عاش في بطن الحوت ساعات أو أيّاماً –وجوّ بطن الحوت معروف بحرارته– كيف سيكون بدنُه، ووضعه عند خروجه، لا شكّ أنّه سيكون سقيماً في جسمه وسقيماً في جلده الذي سيكون أشبه بالمسلوق المسلوخ.

قال ابن مسعود: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ كهيئة الفرخ ليس عليه ريش[١].

إنّ السقم يحمل معاني كثيرة منها: الضعف، والوهن، والهزل، والاصفرار، والشحوب[٢].

وتبدأ رحلة العناية الربّانيّة في شفاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت المعجزة في إنبات شجرة اليقطين[٣].

٢– ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾:

أي: وأنبتنا فوقه شجرة لتظلّه وتقيه حرّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٦٤).

(٢) يونس من وحي القرآن، ص٢٥٦.

(٣) القصص القرآني، (٤/ ٦٥).

(٤) دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٩م، ص٢٨٢.

قال ابن جزي: وإنّما خصّ القرع بالذكر لأنّه يجمع كِبر الورق، وبرد الظلّ، والذباب لا يقربه، فإنّ لحم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمّا خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب[١].

وكان هذا من تدبير الله ولطفه، واليقطين: هو القرع المعروف، فهو يُسمّى يقطيناً، ويُسمّى قرعاً، ويُسمّى دُباء.

إنّها ثلاثة أسماء لنبات واحد، خصائصه النباتيّة واحدة، ولكن هناك اختلاف في ثمره، فالدباء والقرع واحد، وثمره معروف يكاد يُشبه الشمام والبطيخ الصغير، أمّا اليقطين فثمره قريب من الكوسا[٢].

كان إنبات شجرة اليقطين على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ معجزة من معجزات الله، ليحميه من حرّ الشمس، وميكروبات البعوض والذباب، وليمنحه الظل.

ولم يكن إنبات اليقطين عليه بطريقة عاديّة، ولم تمر بمراحل (دورتها الزراعية) المعروفة، فلو كان الأمر كذلك لضاعت الفائدة منها، فبذرة (اليقطين) تحتاج إلى أيام تحت الأرض لتنبت، ثمّ تحتاج إلى أسابيع لتمتد وإلى أسابيع أخرى لتكبر، وستفتك الأمراض بيونس الـمُلقى على الشاطئ مسلوخ الجلد، سقيم البدن.

كان إنبات شجرة اليقطين على يونس في لحظات أو ساعات؛ معجزة من معجزات الله الباهرات.

أمر الله بذرة اليقطين في باطن الأرض فنبتت، وأمرها فظهرت على وجه الأرض، وأمرها أن تمدّ ساقها على وجه الأرض ففعلت، وأمرها أن تُخرج أوراقها الكبيرة

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزري الكلبي أبو القاسم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م، (٣/ ١٧٦).

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٦٦).

العريضة ففعلت، وأمرها أن تتوجّه إلى يونس السقيم، وأن تُظلّل عليه بأوراقها الكبيرة، وأن تُحيط به بحنان ورعاية ففعلت، وسبحان الله القادر على كلّ شيء، الفعّال لما يُريد.

وكما كان الحوت في البحر جنديّاً من جنود الله، ساقه الله لحماية يونس في بطنه، كذلك شجرة اليقطين جنديّ من جنود الله، سخّرها الله لحماية يونس على شاطئ البحر، وما يعلم جنود ربّك إلّا هو[١].

أ- فوائد اليقطين:

قال الإمام ابن كثير عن ذلك: وذكر بعضهم في القروع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنّه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنّه يؤكل نيئاً ومطبوخاً، كذلك يؤكل قشره.

وقد ثبت أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحبّ الدُّبّاء، ويتتبعه من نواحي الصحفة[٢].

وأراد الله الحكيم شجرة اليقطين لحِكَم، منها:

الأولى: أوراق اليقطين عريضة متشابكة، تظلّل بدن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بشكل كامل، وتقيه حرّ أشعّة الشمس، وبذلك تُحفظ قروح بدنه من التضرّر بأشعّة الشمس المؤذية.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، (٤/ ٢٣).

الثانية: أوراق اليقطين ناعمة الملمس، وبدن يونس المقروح بحاجة إلى غطاء ناعم لئلّا يؤذي.

الثالث: لا يقرب أوراق اليقطين الحشرات ناقلة الأمراض، وبالذات الذباب والبعوض.

وهذه ملاحظة يدركها المزارعون الفلاحون فيرون أنّ الذباب لا تقترب من نبات اليقطين، وكأنّ بينها عداوة متأصّلة من آلاف السنين.

وكأنّ أوراق اليقطين جعلها الله تعقيماً لبدن يونس المقروح، لئلّا تضره الحشرات وتنشر فيه الجراثيم والميكروبات، وسبحان الله الحكيم[١].

ب- اليقطين نبات، فلماذا سمّاه الله في الآية شجرة؟

قال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: عن معنى (الشجر)، وأصل الشجر ما نبت على ساق، وكان له أغصان وظل، وإلّا فهو نجم، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]؛ أي: جميع النبات، لأنّ النبات لا يخلو من أحد هذين الوصفين. وسُمّيت الشجرة شجرة لاختلاف أغصانها، وتشعّب أفنانها[٢].

إنّ إطلاق وصف (شجرة) على نبتة اليقطين لحكمة لطيفة، وهي تصوير نبتة اليقطين التي نبتت ونمت وامتدّت وكبرت وظلّت بطريقة سريعة معجزة، تصويرها على أنّها شجرة وليست نبتة، كأنّها شجرة ملتفّة الأغصان، متشابكة الأفنان، متشعّبة الأوراق، شجرة كبيرة أحاطت بيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعلته يأنس تحت ظلّها الظليل،

(١) القصص القرآني، (٤/ ٦٧).

(٢) عمدة الحفاظ، (٢/ ٢٩٠).

وهذا التصوير والتكبير مقصود مراد في التعبير القرآني، لزيادة الشعور بإنعام الله على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورحمته له[١].

وهذه الشجرة أنبتها الله تعالى على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ للوجه الإعجازي في خلق الله تعالى، وليس لمجال المقارنة والتشبيه والمقابلة بأشجار أخرى أو نباتات أخرى[٢].

وبقي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تحت شجرة اليقطين، في ظلّها الظليل، متلحّفاً بأوراقها الناعمة، مستمتعاً بالحماية التي توفّرها أوراقها له، بقي هكذا حتّى زال سقمه، وعوفي من مرضه.

وهكذا انتهت المحنة التي امتحن الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بها، وخرج منها آمناً سليماً معافى، كما خرج من محنة البحر[٣]، وارتقى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في مراتب العبودية لله ربّ العالمين، فزاد حمده وشكره، وذكره واستغفاره وعبادته التي تقرّبه من الودود الرحيم الحكيم العليم الرشيد اللطيف البر.

٣- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

ثــمّ لطف الله به لطفاً آخــر، وامتنّ عليه مِنّــة عُظمى، وهو أنّه أرســله للدعوة إلى الله[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٦٧).
(٢) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من وحي القرآن، ص٢٦٨.
(٣) القصص القرآني، (٤/ ٦٨).
(٤) تفسير السعدي، ص٩٤٨.

أ- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾:

لمّا عافى الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تحت شجرة اليقطين أعاده إلى قومه، الذين غادرهم، لأنّهم آمنوا به أثناء غيابه عنهم، فأعاده إليهم ليُبلّغهم الشريعة والأحكام. والآيات تتحدّث عن قوم يونس، الذين هم أهل نينوى، يُخبرنا الله أنّهم كانوا مئة ألف أو يزيدون[١].

واستدلّ بعض العلماء على إثبات الإحصاء السكّاني؛ لأنّه قال: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؛ فأحصاهم عدداً مع أنّه لو قال: فأرسلناه إلى قومه كفى، لكن عدّهم عدّاً، ولا شك أنّ الإحصاء إذا كان فيه فائدة يكون مطلوباً[٢].

وظاهر الآية الكريمة؛ ترتيب ذكر الإرسال بعد الإنجاء من الحوت: أنّه إعادة لإرساله[٣].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره للآية: هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر، وجرى له ما جرى بعد هربه، كما قصّه الله علينا في هذه السورة، وهم: أهل نينوى. قال قتادة: أُرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل[٤]. وهناك أقوال في ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾:

- كانوا يزيدون عن عشرين ألفاً[٥].
- وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفاً[٦].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٦٨).
(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، جار الكتب الثريا للنشر، ٢٠١١م، ص٣١٤.
(٣) التفسير المحرر للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء، الدرر السنية، ٢٠١٧م، (٣٧/ ٦١٢).
(٤) فتح القدير، (٨/ ٢٦٢).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق، (٨/ ٢٦٣).

- وقال سعيد بن جُبير: سبعين ألفاً[١].

وقد وقع الخلاف بين المفسّرين هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له، وتكون الواو في ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ لمجرّد الجمع بين ما وقع له مع الحوت، وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدّم من السياق، وتأخير ما تأخّر، أو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت، ما وقع؟ على قولين[٢].

والراجح: أنّه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدلّ عليه ما قدّمنا، وبقي مستمرّاً على الرسالة، وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدّم نبوّته، ورسالته، ومن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ للأنبياء والمرسلين أن اختارهم للدعوة إليه، ودلالة الناس عليه، وبيان شرع الله لخلقه.

ولا شك أنّ من سعادة الله للإنسان هو الذي إذا دعا إلى الله استجاب الناس له، وآمنوا بدعوته، فكان سبباً لهدايتهم، فهذا من إكرام الله، فأعظم عمل أن تكون سبباً في هداية الخلق، وأن تكون سبباً في دلالة الخلق على الحقّ جَلَّجَلَالُهُ، وهذه صنعة الأنبياء، فاعتصم بالله، واستعن به، ولا تعص أمره[٣].

فإذا أقامك الله في دعوة إليه، فلا تؤثر عليها الدنيا، فلا تؤثر عليها مرتباً ضخماً، ولا منصباً رفيعاً بل آثر مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ تأتك الدنيا وهي راغمة فهذا أرفع منصب تناله في الدنيا والآخرة[٤].

- معنى (أو) في قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾:

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تفسير النابلسي، (١٠/ ٤٨٦).
(٤) المصدر السابق، (١٠/ ٤٨٧).

لقد اختلف في معنى (أو) فقال الفراء: هي بمعنى (بل) وعليه قول جرير في قصيدة مدح فيها هشام بن عبد الملك:

ماذا ترى فـي عيال قـد بَرمن بهم لـم أخـص عِدّتهـم إلى بعـدّاء

كانـوا ثمانيـن أو زادوا ثمانيـة لـولا رجاؤك قـد قتّلـت أولادي

وقال غير الفراء (أو) بمعنى: الواو لمطلق الجمع، وعليه قول جرير في قصيدة يمدح فيها الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

جـاء الخلافـة أو كانت لـه قدراً كما أتـى ربَّهُ موسـى علـى قدر

وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ: المعنى: أرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم: هم مائة ألف أو أكثر، وإنّما خوطب العباد على ما يعرفون[١].

وللبصريّين فيها أقوال: قيل هي للإبهام، وقيل: هي للتخيير، بمعنى إذا رآهم الرائي تخّير بين أن يقول: هم مائة ألف أو يقول هم أكثر من ذلك[٢].

وقال آخرون: هي للشك، والشك ليس من الله، فإنّه عالم بهم، ولكنّه من جهة الرائي الذي ينظر إليهم، فلا يدري هل هم مائة ألف أو يزيدون[٣]

وقال آخرون: هي للإبهام، أي: أن الله أبهم عددهم علينا، فهم أكثر من مائة ألف، ولكن لا داعي للبحث في عددهم فهو مُبهم، فلا يمكن أن نبيّنه أو نحدّده[٤].

---

(١) تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه للشيخ محمد علي طه الدرة، دار ابن كثير، ٢٠١٥م، (٨/ ٨٥).

(٢) المصدر السابق، (٨/ ٨٥).

(٣) القصص القرآني، (٤/ ٦٩).

(٤) المصدر السابق نفسه.

ورغم أنّ معظم المفسّرين على القول الأوّل، وأنّها بمعنى (بل) إلّا أنّنا نميل إلى القول الأخير، ونُرجّح أنّها للإبهام[١].

وكلّ ما نقوله في الزيادة ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾؛ أي: تحديد سكّان أهل نينوى، لا دليل عليه، ولو قلنا إنّ (أو) بمعنى (بل) فستختلف في تحديد الزيادة، كما كانوا يزيدون على المائة ألف، وهذا ما حصل للمفسّرين.

ولهذا نرجّح أنّهم كانوا أكثر من مائة ألف نسمة، ولكنّ هذه الزيادة لم يُحدّد الله عَزَّوَجَلَّ عددها، فنبقيها على إبهامها، ولا يمكننا ضبطها بالتحديد. وكون أهل نينوى في ذلك الزمن الماضي أكثر من مائة ألف شخص، له دلالة حضارّية، حيث يشير إلى أنّ منطقة نينوى كانت مأهولة السكان، وكونهم آمنوا بالله واتّبعوا الله واتبعوا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ دليل على كثرة عدد المؤمنين السابقين، فاجتماع أكثر من مائة ألف مؤمن في زمان ومكان واحد في الماضي شيء جيّد طيّب يسرُّ المؤمنين[٢].

كما أنّ الآية الكريمة تُشير إلى عظمة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في منطقه وشخصيّته، وخطابه العقلانيّ والوجدانيّ المؤثّر، وقدرته على الإقناع وإقامة الحجج والبراهين، وإخلاصه وصدقه في دعوة القوم الذين أُرسل إليهم.

ب- ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾:

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنّ قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قد آمنوا، ولـمّا آمنوا رفع الله عنهم العذاب الذي كان وشك الوقوع بهم، ومتّعهم بحياة طيّبة سعيدة إلى حين مجيء آجالهم وانتهاء أعمارهم. وكان إيمان قوم يونس أثناء غيبته عنهم، ومغادرته لهم[٣].

---

(١) الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي، دار الرشيد، ٢٠٠٩م، (١٢/ ٨٨).

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٧٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

ولمّا كان نبيّهم يدعوهم إلى الله كذّبوه وكفروا به، فطلب الله منه أن يُخبرهم أنّ العذاب سيقع بهم بعد ثلاثة أيّام، فأخبرهم وغادرهم على اعتبار أنّه لا فائدة من بقائه بينهم، فلمّا غادرهم، وخلال الأيّام الثلاثة، اجتمع الملأ منهم وفكّروا في الموضوع: إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أنذرهم، وهو صادق في إنذاره فما عهدوا عليه كذباً، وهو أنّ العذاب قادم إليهم لا محالة، فما تنتهي الأيّام الثلاثة حتّى يقع بهم العذاب، ولا وسيلة لدفع العذاب إلّا إيمانهم بالله وتخلّيهم عن الكفر به.

وشرح الله صدورهم للإيمان، واتّخذوا قرارهم بالإيمان، وطلبوا من قومهم الإيمان، وحرصوا على الإيمان قبل انقضاء المدّة، ووافقهم قومهم، وخرجوا إلى العراء متضرّعين إلى الله بالدعاء طالبين منه قبول إيمانهم، ومغفرة ذنوبهم، ورفع العذاب عنهم.

وعلم الله صدقهم، فعاملهم بلطفه، ورحمته، وقبل إيمانهم، ورفع العذاب عنهم، ومتّعهم على حين.

- ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ آمنوا عن آخرهم، فلم يشُذّ منهم أحد ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ إلى الموت.

- ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ منتهى آجالهم[1]، ونجوا من العذاب، وقد أخبرنا الله عن إيمان قوم يونس، وانتفاعهم بهذا الإيمان، ورفع العذاب عنهم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

سيأتي الحديث عن تفسير الآية الكريمة بإذن الله تعالى لاحقاً.

---

(١) موسوعة التفسير المأثور، (١٨/ ٧١٨).

- ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٨]؛ فالآية الكريمة تُبيّن سنّة الله في الرخاء بمفهومة الواسع الشامل، الذي يشمل السعادة النفسيّة، والنعيم المعنويّ من راحة القلب وهدوء النفس، وسعادة الضمير، وعدم القلق والحيرة والاضطراب، فمن أهمّ أسباب الرخاء، الإيمان بالله إيماناً حقيقيّاً يستقرّ في القلوب فيملؤها، وفي النفوس فيغيّرها، ويجعلها مستسلمة لله راضية بأمره وقضائه.

إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاهم إلى توحيد الله، وإفراد العبوديّة له، والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وما يستلزم ذلك من الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشرّه.

والإيمان بالله يستلزم الامتثال لشرعه وهديه في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، فذلك المجتمع السعيد الذي آمن برسالة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عاش في ثمار الإيمان، وعطايا الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتي منها:

- السكينة والطمأنينة التي يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

وطمأنينة القلب هي الحبّ له والأنس به عَزَّوَجَلَّ.

والطوبى: في بعض أقوال المفسّرين: هي الفرح وقرّة العين، وعند بعضهم إنّها العيش الطيّب[1].

وهـذه الطمأنينة والفرح وقرّة العين من متاع الدنيا، بسـبب الإيمان بالله تعالى قبل الآخرة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، دار ابن حزم، ٢٠٠٩م، (٤/ ٣٢٨).

- وقد رتّب الله الحياة الطيّبة على الإيمان، ووعد بها المؤمنين الذين يتبعون إيمانهم بالأعمال الصالحة، لأنّ الإيمان الحقّ يستلزم ذلك، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧][1].

هذه الآية الكريمة تبيّن سنّة من سنن الله تعالى، ووعداً صادقاً منه تعالى بأنّ من يعمل صالحاً ذكراً كان أو أنثى فإنّه سيحيا في هذه الدنيا حياة طيّبة ييسّرها الله له جزاء عمله الصالح وإيمانه بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا إضافة إلى ما يناله من أجر حسن في الآخرة، هو أحسن ممّا عملوه في الدنيا[2].

- والإيمان مع التقوى سبب في فتح بركات السماء والأرض: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٨].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إنّها سنّة من سنن الله في أيّ مجتمع يؤمن بالله ويتّقيه، أن يُبارك الله فيما يأتي من السماء والأرض، وهذا وعد من الله مُحقّق[3]، وقد تحقّق في قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمّا آمنوا، أفاء الله عليهم نعمة الأمن والرخاء والمتعة وبركات معنويّة وماديّة، وذلك لأنّهم عادوا إلى صوابهم، وتركوا عنهم ضلالهم، ولم يستمرّوا في طريق العناد،

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د. شريف الخطيب، الدار العثمانية، ٢٠٠٤م، (١/ ٣٩٠).
(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٢٧.
(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (١/ ٤٠٠).

فلم يحلّ بهم عذاب الله الذي أعدّه الله سبحانه لمن يخالف عن أمره، ويضلّ عن سواء السبيل[١].

إنّ قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ آمنوا بتوفيق الله تعالى، وتداركتهم رحمته وهدايته، ويدلّ إيمانهم على حيويّة فطرتهم وسلامتها في استقبال دعوة نبيّه، وصدقهم في الإدراك الكوني في الآفاق والأنفس، وإحساسهم بحقائق الوجود الدالّة على وجود الحكيم العليم القويّ العزيز، فمن سنّة الله في الإيمان به، عندما يُحقّقوا الإيمان بالله ويفردوه بالعبادة، ويتوجّهوا إليه توجّهاً صادقاً مخلصاً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تترتب على ذلك الإيمان ثمار عظيمة منها منها تيسير الأمور، وسكينة نفسيّة وطمأنينة قلبيّة، وأمن وسعادة، ورضى بأقداره وقضائه وامتلاء القلب بالنور الربّاني، الذي يقضي على كلّ ريب وشك، وسخط، وهمّ وغم، بل يمتلئ القلب بمحبّة الله وخوفه وشكره والتوكّل عليه والإنابة إليه.

- ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٨]؛ وفي الآية استنباط دقيق جدّاً، وهو أنّ الإنسان إذا آمن واستقام وأصلح ما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فله بهذه الآية إشارة، وهي أنّ ما يمتّعه إلى حين، إلى حين انقضاء أجله، أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعالجك لفترة، ويمنحك لفترة، ثمّ يعطيك لفترة، ففي حياة المؤمن ثلاثة أطوار، فقبل أن يؤمن تأتيه معالجات، فإذا آمن: أتته الابتلاءات، وإذا استقرّ إيمانه، أتته الكرامات، فالفترة الأولى معالجة، والثانية ابتلاء، والثالثة إكرام، وبه تستقر حياتك النفسيّة، وتشعر بالسعادة والهدوء، والراحة هذه فترة الإكرام، وقبلها الامتحان، وقبله المعالجة، فإذا استجاب الإنسان إلى الله سريعاً قصرت مدّة المعالجة، وإذا امتحنه مرّة،

(١) زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م، (١٢/ ٦٠٤٣).

وثانية وثالثة وكان في كلّ مرّة صادقاً كما قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قصرت مدّة الامتحان أيضاً، وطالت فترة الإكرام، وهناك آيات أخرى تؤكّد ذلك:

- قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

- وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

- وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

فهذه الدنيا على قصرها إذا صلحت فيها أمرك مع الله، جعلها الله لك متعة، وأسعدك فيها، لأنّك عولجت فاستجبت، وامتُحنت فصبرت، فنجحت، وبقي الإكرام.

لهذا قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فحتّى المؤمن إذا أصلح، امتحنه الله، فإذا نجح يُرفع بين زملائه، وتصير له قيمة[١]، على مستوى شعبه وأمّته، وبني الإنسان، وهذا منوط بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ وعطاياه ليس لها حدود.

إنّ قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أخلصوا في دعائهم لله، لذلك استجاب لهم، قال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء مِن قلب غافل**»[٢].

---

(١) تفسير النابلسي، (١٠/ ٤٨٧).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٠م، (٢/ ٢٨٦)، رقم ١٦٥٣.

وقبَّل اللهُ توبتَهم لأنّهم أخلصوها لله، لأنّ الإخلاص لله شرط في التوبة، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا تصحّ التوبة الشرعيّة إلّا بالنيّة والإخلاص، فإنّها من أعظم العبادات الواجبات، ولذلك قال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨][1].

- ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٨]؛ استفاق قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من غفلتهم وثابوا إلى رشدهم، وأنابوا إلى ربّهم نادمين على ما فات، تائبين من ذنوبهم، مستغفرين ربّهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقبَّل غافرُ الذنب وقابل التوب توبتَهم وغفر ذنوبهم، وكشف عنهم العذاب، ورفع عنهم غضبه ومقته، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنزل قرآناً يُتلى إلى قيام الساعة يحكي قصّة هذه التوبة الجماعيّة، ليتّعظ أولوا الألباب، ويعودوا إلى ربّهم الغفور التوّاب.

أبواب التوبة مشروعة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ينادي عباده: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فرحمة الله تعالى واسعة، والذنوب والمعاصي مهما بلغ حجمها وكثُر عددها فالرحمن الرحيم يغفرها إذا تاب عبده إليه وأناب وصدق في توبته وندم على ما كان منه من تقصير وخطأ.

قوم يزيدون عن مائة ألف عاندوا رسولهم وردّوا دعوته، وكان العذاب قاب قوسين أو أدنى منهم، فغفر الله تعالى لهم، ورفع عنهم العذاب، ومتّعهم حتّى حين، وأبدل سيّئاتهم حسنات، لأنّهم تابوا وأنابوا واستغفروا ربّهم، فهل يجد بعد ذلك اليأس والقنوط مكاناً لها في نفوس عباد الله تعالى المقصّرين المذنبين[2].

---

(١) الإخلاص حقيقته ونواقضه، عبد الله بن عيسى الأحمدي، رسالة لنيل درجة الماجستير في تخصص العقيدة، ٢٠١٧م، ص٨٤، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩٦م، (٧/ ٧٠).

(٢) في قصصهم عبرة، علي حسن العبدلي، ص١٩٣.

المبحث الثالث

قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الأنبياء

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

أوّلاً: قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾:

ثانياً: قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

رابعاً: قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]:

خامساً: رفع البلاء بالدعاء

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

هذه السورة مكيّة، وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلاميّة في ميادينها الكبيرة، الرسالة، الوحدانيّة، البعث والجزاء، وتتحدّث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وعن قصص الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب المرقوب، ثمّ انتقلت إلى الحديث عن المكذّبين وهم يشهدون مصارع الغابرين، ولكنّهم لا يعتبرون ولا يتّعظون، حتّى إذا ما فاجأهم العذاب رفعوا أصواتهم بالتضرّع والاستغاثة، ولكن هيهات.

وتناولت السورة دلائل القدرة في الآفاق والأنفس للتنبيه على عظمة الخالق المدبّر الحكيم فيما خلق وأبدع، ولتربط بين وحدة الكون ووحدة الإله الكبير.

وبعد عرض الأدلّة والبراهين الشاهدة على وحدانيّة الله ربّ العالمين، تذكُر السورة حال المشركين، وهم يتلقّون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستهزاء والسخرية والتكذيب، وتعقّب على ذلك بسنّة الله تعالى الكونيّة في إهلاك الطغاة المجرمين.

ثمّ تناولت السورة الكريمة قصص بعض الرسل (صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليهم أجمعين)، وتتحدّث بالإسهاب عن قصّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه الوثنيّين في أسلوب مشوّق، فيه من نصاعة البيان وقوّة الحجّة والبرهان، ممّا يجعل الخصم يُقرّ بالهزيمة في خشوع واستسلام.

وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام)، فتتحدّث عن إسحاق ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيّوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون (يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)، وزكريّا، وعيسى، بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرّضوا لها، وتختم ببيان رسالة سيّد المرسلين حبيبنا محمّد بن عبد الله، المرسل رحمة للعالمين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمّيت سورة الأنبياء لأنّ الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشريّة[١].

تفسير الآيات الكريمة:

أوّلاً: قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾:

١- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾:

واذكر ذا النون، والخطاب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكلّ مسلم متذكِّر من بعده، يدعوه الله إلى أن يتذكّر قصّة ذي النون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ليستخرج منها الدروس والدلالات في الإيمان، والدعوة، والصبر، واللجوء إلى الله.

- و ﴿ٱلنُّونِ﴾؛ هنا يراد بها الحوت الذي التقم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[٢]، والنون من أسماء الحوت، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان، لكن قد يوافق الحرف اسماً لشيء آخر، كما في (ق)، وهو اسم (جبل) وهكذا تصادق أسماء الحروف أسماء الأشياء[٣].

---

(١) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، ص١٦٤.

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٤٠).

(٣) تفسير الشعراوي، (١٥/ ٩٦٢١).

و ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾؛ تركيب عربيّ قديم مبين وواضح، والـ ﴿وَذَا﴾ للاختصاص، وللإشارة القويّة بشدّة، و﴿ٱلنُّونِ﴾ تعني العلم، وتعني الحقّ، وتشير إلى اليقين الثابت الذي لا يتغيّر، وهي تشير إلى التأكيد والتوكيد، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾؛ الثابت المؤكّد المدعّم بالحقّ[1]، والنون كما يقول السمين الحلبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحوت كما صرّح به في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، والمراد به نبيّ الله يونس بن متّى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنّما أُضيف إلى النون لابتلاعه إيّاه. وقال بعضهم: النون الحوت العظيم، فخصّصه[2]".

وهذا ما ذهب إليه المفسّرون أيضاً، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني الحوت، صحّت الإضافة إليه بهذه النسبة[3]".

ولهذه الفريدة القرآنيّة دلالات لا توجد في غيرها، منها:

- لفظة النون جاءت في حديث الله عَزَّوَجَلَّ المباشر عن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أمّا الحوت فقد ورد في سياق الحديث عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر أخبار الأنبياء قبله، تسلية له لما كان يعانيه من كفّار قريش، والخطاب موجّه له مباشرة كما ترى.

- اختلاف اللفظتين لاختلاف السياقين، وكلّ لفظة التأمت مع سياقها التآماً شديداً، وليس هذا من قبيل التنوّع أو التفنّن في الأسلوب دون غرض، حاشا لله وكلّا، بل هناك فائدة تُرتجى من جرّاء هذا الاختلاف، تتمثّل في: أنّ بين اللفظتين تفاوتاً كبيراً في حسن الإشارة إلى الحالين، وتنزيل الكلام في الموضعين،

(١) أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط١، ٢٠١٦م، ص١٩٩.

(٢) عمدة الحفاظ، (٤/ ٢٧٣-٢٧٤)؛ المفردات، الراغب، ص٥٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٩٣).

فإنّه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ولم يقل: (صاحب الحوت)، ولفظ النون أشرف لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء في أوائل السور نحو: ﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

هذا بالإضافة إلى ما يشتمل عليه هذا الحرف من أسرار باهرة في علم الله تعالى[١]. وقد قال السهيليّ: "ولقد قيل: إنّ هذا قسم بالنون والقلم، وإن لم يكن قسماً فقد عظّمه بعطف المقسم عليه، وهو القلم".

وهذا الاشتراك يشرّف هذا الاسم، وليس في اللفظ الآخر، وهو الحوت، ما يشرّفه، ثمّ قال: فالتفت إلى تنزيل الكلام في الآيتين يلُح لك ما أشرت في هذا، فإنّ التدبّر لإعجاز القرآن واجب مفترض[٢]، وهذا كلّه يدلّ على نفي الترادف كما أثبتنا في بحث سابق، حيث استخدم القرآن لفظة اليمّ والبحر، والجبل والطور، والقرية والمدينة[٣]، عَلَماً على مكان واحد، ولكن اختلفت الألفاظ لاختلاف السياق، وكانت لكلّ لفظة لمحة ولقطة في سياقها ميّزتها عن قرينتها كما بيّناه هناك تفصيلاً.

ولو كانت الألفاظ متّحدة المعنى من جميع الوجوه لكان هذا اللفظ يصلح مكان ذاك دون أدنى فرق، ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم المحقّقين، فثبت أنّ لكلّ لفظة في القرآن دلالةً تختلف بها عمّا يقاربها في المعنى، أو عمّا يرادفها كما يذهب من يقول بالترادف، والله أعلم.

---

(١) الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، د.عبد الله عبد الغني سرحان، ص٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٩.

(٣) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٨١م، ص٣٥٠.

– في هذه الفريدة غرابة في الاستعمال، وقلّة في التداول، وهذه الغرابة اتّسقت مع غرابة فعل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ خرج مغاضباً لقومه دون إذن ربّه، ثمّ عتاب الله له على ذلك، وإنجائه من بطن الحوت في سابقة لم تحدث لأحد في تاريخ البشريّة جمعاء، ولذلك نُسب إلى الحوت تشريفاً له وتذكيراً بفضل الله عليه، وتعليماً للمؤمنين بعدم اليأس مع ذكر الله تعالى، فإنّه المنجّي من كلّ همّ وغمّ وكرب، والله أعلم(١).

٢- ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾:

فقد غضب من قومه أن لم يؤمنوا، فانصرف عنهم(٢). وأخطأ من قال إنّه فعل ما أغضب الله عَزَّوَجَلَّ، وأنّه شكّ في قدرة الله على الانتقام منه، وهذا فهم خاطئ، وتفسير للآية الكريمة على غير معناها الصحيح، وقد وقع في هذا الوهم بعض الناس، فظنوا أنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قد وقع في المعصية وخالف أمر الله، فذهب مغاضباً لربّه، فابتلعه الحوت(٣)، وهذا غير صحيح، وفهم سقيم، وهذا تأثّر واضح بما نقلوه عن الإسرائيليّات، فقد قال رواتها: إنّ يونس غادر قومه وذهب مغاضباً لربّه، حيث غضب هو من الله سبحانه، لأنّ الله لم يوقع العذاب على قومه خلال ثلاثة أيّام، ممّا جعله يبدو أمامهم كاذباً، وغضب الله منه لأنّه غادرهم بدون إذن منه.

وهذا كلام لا يجوز أن يصدر عن مسلم صالح، فكيف يصدر عن نبيّ كريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

---

(١) الأسرار القرآنية في الفرائد القرآنية، ص٢٢٩.

(٢) تفسير القرآن بالقرآن، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠م، ص٥٤٣.

(٣) مع الأنبياء وجهادهم من خلال سورة الأنبياء، محمود عبد الحميد، ص٢٩١، العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، طيبة الدمشقية للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م، ص٢٧١.

المسلم الصالح لا يغضب من الله، فهل يغضب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله؟ إنّنا نبرِّئُ يونس من هذا الضلال، لقد كانت المغاضبة بين يونس وبين قومه الذين لم يستجيبوا لدعوة الله في بداية أمرهم، وهذا أمر مفهوم لا شبهة فيه.

غضب يونس من قومه لأنّهم رفضوا دعوته، وأصرّوا على الكفر، وهذا غضب معقول، وغضب قومه الكافرون منه، لأنّه أنذرهم العذاب وأخبرهم أنّه واقع بهم بعد ثلاثة أيّام، فغضبوا منه[١]. فهو خرج مغاضباً لقومه، لا مغاضباً لربّه، وحاشاه عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغضب ربّه أو يعصي له أمراً[٢].

- وقال النسفيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾: "أي: مراغماً لقومه، ومعنى مغاضبته لقومه: أنّه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم، عندها رُوِي أنّه برِم بهم، أي: ضاق ذرعاً بتكذيبهم له لطول ما ذكّرهم فلم يتّعظوا، وأقاموا على كفرهم، فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلّا غضباً لله، وبغضاً للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم، فابتُلي ببطن الحوت"[٣].

- وقال صاحب أضواء البيان رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﴿مُغَٰضِبًا﴾: "أي: في حال كونه مغاضباً لقومه، ومعنى المفاعلة فيه: أنّه أغضبهم بمفارقته، وخوّفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدّة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب، ثمّ خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج". قاله أبو حيّان في البحر.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٤١).
(٢) مع الأنبياء وجهادهم في سورة الأنبياء، ص٢٩١.
(٣) تفسير النسفي، (٣/ ٨٧).

واعلم أنّ قول من قال ﴿مُغَٰضِبًا﴾ أي: مغاضباً لربّه كما روي عن ابن مسعود، وبه قال الحسن والشعبيّ وسعيد بين جبير، واختاره الطبريّ، واستحسنه المهدويّ، يجب حمله على المعنى القول الأوّل، أي: مغاضباً من أجل ربّه، قال القرطبيّ بعد أن ذكر هذا القول عمّن ذكرنا: "وقال النحّاس: ربّما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضباً من أجل ربّه كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله سبحانه إذا عُصِي".

والمعنى على ما ذكر: "مغاضباً قومه من أجل ربّه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصحّ في الآية"(١).

٣- ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾:

فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأوّل: أنّ المعنى ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لن نضيّق عليه في بطن الحوت، ومن إطلاق (قدر) بمعنى (ضيق) في القرآن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي: ويضيّق الرزق على من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، فقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾؛ أي: ومن يضيّق عليه رزقه(٢).

ومعنى الآية ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: ظنّ يونس أنّ الله لن يُضيّق عليه بإبقائه عند هؤلاء الكفّار، المنتظرين للعذاب، وإنّما سيوجّهه إلى قوم آخرين يدعوهم إلى الله(٣).

---

(١) أضواء البيان، (٤/ ٦٨٢-٦٨٦)؛ التدبر والبيان، (٢١/ ٤٥٤).

(٢) أضواء البيان، (٤/ ٦٨٢-٦٨٦).

(٣) القصص القرآني، (٤/ ٤٣).

وعن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "أرسل لي معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال لي: لقد ضربتني أمواج القرآن، قلت: بماذا؟ قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أيظنّ عبد من عبيد الله أنّ الله لا يقدر عليه فضلاً عن نبيّ من الأنبياء؟ قلت له: ليس ذلك من القدرة، إنّما هو من التقدير، بمعنى التضييق، قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦]".

وقال الهرويّ: "يقال: قَدَرَ وقدَّر بمعنى: ضيّق، وهو ليس من القدرة"(١).

فذهب أكثر العلماء إلى أنّه هجرهم ظانّاً أنّ ربّه لن يضيّق عليه، وهناك من قال إنّه ظنّ أنّ الله لن يحصر دعوته في هؤلاء العصاة، بل يوجّهه إلى قوم آخرين(٢).

والوجه الثاني: أن معنى ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: لن نقضي عليه ذلك، وعليه فهو من القدر والقضاء.

وأمّا قول من قال: إنّ ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] من القدرة، فهو قول باطل بلا شكّ، لأنّ نبيّ الله يونس لا يشكّ في قدرة الله على كلّ شيء، كما لا يخفى(٣).

ولا يجوز أن يُعتقد أنّ نبيّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ظنّ أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يقدر عليه، لأنّ من ظنّ في قدرة الله شكّ، والشكّ في قدرة الله كفر، وقد عصم الله أنبياءه من ذلك(٤).

---

(١) عمدة الحفاظ، (٣/ ٣٢٧)؛ القصص القرآني، (٤/ ٤٢).

(٢) من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، ص٥٧٦.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، بجدة، ٢٠١٣م، (٤/ ٦٨٣-٦٨٦)؛ التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، (٢١/ ٤٥٤).

(٤) قصص لا تليق بالأنبياء، طارق اللحام، شركة دار المشايع، ط٤، ٢٠٢٠م، ص١٢١.

ثانياً: قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]:

١- ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

- نادى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ربّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو في الظلمات، ودعاه، وتضرّع إليه.

- ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ جمع ينطبق على عدّة نماذج حسّيّة ونفسيّة، فهو في ظلمة بطن الحوت، وهو في ظلمة ماء البحر، وهو في ظلمة الليل.

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يعاني ظلمة نفسيّة شعوريّة، ظلمة الغمّ والهمّ والكرب والضيق، ظلمة المحنة والشدّة والبلاء[1].

وعندما مَرّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بالظلمات نادى ربّه، وعندما اِعترته ظلمات نفسيّة شعوريّة نادى الله، واستعان به، وهذا هو الإيمان، وهكذا يفعل المؤمن بالله، إنّه لا يلجأ إلّا إلى الله ليكشف عنه الضرّ والبلاء.

كان نداء ودعاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهو دعاء موجز مجمل رقيق لطيف، كلّه أدب ورقّة وتقدير لله تعالى[2]. وهي دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص الذي يتمثّل في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، وتثنّى بالتنزيه، تنزيه الله تعالى عن كلّ ما يتنافى مع الكمال، وذلك يتمثّل في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ثمّ تنتهي بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثّل في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

وهذه الكلمات القليلة التي يتمثّل فيها الإيجاز المعجز في اللفظ، والتي يتمثّل فيها السموّ السامي في المعنى، لا تطلب شيئاً في صراحة، ولا تنادي شيء بأسلوب مباشر، ولكنّها مفعمة بالطلب، مفعمة بالاستغاثة(١).

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأمّا دعوة ذي النون، فإنّ فيها من كمال التوحيد، والتنزيه للربّ تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمّ والغمّ، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإنّ التوحيد والتنزيه يتضمّنان إثبات كلّ كمال لله، وسلب كلّ نقص وعيب، والاعتراف بالظلم يتضمّن، إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديّته، وافتقاره إلى ربّه، فهاهنا أربعة أمور وقع التوسّل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبوديّة، والاعتراف"(٢).

كان سيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الظلمات قريباً من الله تعالى، فقد صفا قلبه حتّى صدر منه هذا النداء الخالد في أدبٍ، ولطف، ورقّة، وخشوع، وخضوع، وتضرّع، وإنابة، فأصبح مفتاحاً لكلّ مؤمن صادق مخلصٍ لله في أيّ كرب، أو محنة، أو بلاء يمرّ به.

٢- ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾:

- ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾؛ أقرّ لله تعالى بكمال الألوهيّة(٣)، وأنّه لا معبود بحقّ إلّا أنت.

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الحليم محمود، ص١٧١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ٢٠١٥م، (٤/ ٢٠٨).

(٣) الثناء في القرآن الكريم، هتون فلمبان، دار ابن حزم، ٢٠١٦م، ص٢٣٤.

- ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾؛ فيه إثبات إفراد الإلهيّة. والإلهيّة تتضمّن كمال عِلمه، وقدرته، ورحمته، وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العبد، فإنّ الإله: المألوه. والمألوه هو الذي يستحقّ أن يُعبَد، وكونه يستحقّ أن يُعبَد بما اتّصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحبّ، المخضوع له غاية الخضوع؛ بغاية الذلّ[١].

- (لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله)؛ اعتراف بتوحيد الإلهيّة، وتوحيد الألوهيّة يتضمّن أحد نوعي الدعاء، فإنّ الإله هو المستحقّ لأن يُدعى دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلّا هو[٢].

إنّ معنى كلمة (لَا إِلَٰهَ إِلَّا الله): أنّه لا معبود بحقّ إلّا الله، فهو وحده المستحقّ بأن تصرف له جميع العبادات، وتكون خالصة له دون سواه.

وكلمة (لا إله إلّا الله) تشمل جزأين، النفي والإثبات.

- أمّا (لا إله): فنافية جميع ما يُعبَد من دون الله، فلا يستحقّ أن يعبَد أحد سواه، و (النكرة في سياق النفي تفيد العموم)، فهي تشمل كلّ ما يمكن أن يتوجّه إليه بالعبادة، وكلّ من تنصرف إليه غير الله تعالى[٣].

- (إلّا الله): هذا هو المراد من قول يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَّآ أَنتَ﴾ أيّ: (إلّا الله)، فأثبت يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ العبادة لله تعالى، فهو الإله الحقّ، المستحقّ للعبادة، فإنّ خبر (لا) المحذوف (بحقّ)، هو الذي جاءت به نصوص الكتاب المبين (لا إله

(١) تفسير ابن تيمية للآية ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾، ص٢٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٧.
(٣) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، ١٩٩٦م، ص٢٦٠.

بحقّ إلّا الله) أي: لا معبود بحقّ إلّا الله، فكما تفرّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخلق، والرزق، والإحياء، والأمانة، والإيجاد، والإعدام، والنفع، والضرّ، وغير ذلك من معاني ربوبيّته، ولم يشاركه أحد في خلق المخلوقات، ولا في التصرّف في شيء منها، كذلك تفرّده سبحانه بالألوهيّة حقّ لا شريك له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

– وأمّا لفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) عَزَّوَجَلَّ، فهو اسم من أسمائه جَلَّوَعَلَا، بل هو اسمه الأعظم عند قوم، وهذا أكثر الأسماء تردّداً في القرآن.

– و (الله): هو الاسم الدالّ على الذات العظيمة الجامعة لصفات الألوهيّة والربوبيّة، وهو اسم له وحده، ولا يتعلّق به أحد سواه، ولا يُطلق على غيره، ولا يدّعيه أحد من خلقه.

– و(الله): اسم للربّ المعبود والمحمود، الذي يمجّده الخلق، ويسبّحونه، ويحمدونه، وتسبّح له السماوات السبع، والأرضون السبع، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجنّ، والبرّ والبحر، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

– و (الله): الذي لجأ إليه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الربّ الذي تُألّهه القلوب، وتَحنّ إليه النفوس، وتتطلّع إليه الأشواق، وتُحبّه وتَأنس بذكره وقُربه، وتَشتاق إليه، وتفتقر إليه المخلوقات كلّها في كلّ لحظة، وخَطرة، وفكرة، وفي أمورها الخاصّة والمستقبلة، فهو مُبديها ومعيدها، ومُنشئها، وباريها، وهي تدين له سبحانه، وتفتقر إليه في كلّ شؤونها وأمورها، فما من مخلوق إلّا ويشعر بأنّ الله تعالى طوّقه مِناً ونعماً، وأفاض عليه من آلائه، وكرمه، أفضاله، وإنعامه بالشيء الكثير، فجدير إذاً أن يتوجّه قلب الإنسان إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالحبّ، والتعظيم والحنين.

- و(الله): عظيم في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيط به العقول، ولا تدركه الأفهام، ولا تصل إلى عظَمَته الظنون، فالعقول تحارُ في عظَمَته، وإن كانت تستطيع بما مُنِحت من الطَّوْق والقدرة على أن تدرك جانباً من هذه العظَمَة، بمنحها محبة الله، والخوف منه، والرجاء فيه، والتعبّد له، بكلّ ما تستطيع[١].

قال الشاعر:

لله في الآفاق آيات لعلّ ... أقلّها هو ما إليه هداكا

ولعلّ ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا

والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولْتَ تفسيراً لها أعياكا[٢]

- (والله): الذي لجأ إليه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الإله المعبود، الذي يُخلص له المؤمنون قلوبهم، وعبادتهم، وصلاتهم، وحجّهم، وأنساكهم، وحياتهم، وآخرتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وروح (لا إله إلّا الله) التي نادى بها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في الظلمات: إفراد الربّ جلّ ثناؤه، وتقدّس وتبارك اسمه، وتعالى جدّه، ولا إله غيره، بالمحبّة، والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من التوكّل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، فلا يُحَبُّ سواه، بل كلّ من كان يحبّ غيره فإنّما يحبّه تبعاً لمحبّته، ولأنّه وسيلة إلى زيادة محبّته، ولا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يُتوكّل إلّا عليه، ولا يُرغب إلّا إليه،

(١) مع الله، سلمان العودة، الإسلام اليوم للإنتاج والنشر، ط٥، ٢٠١٠م، ص٣٦-٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩.

ولا يُطاع إلّا بأمره، ولا يُحتسب إلّا له، ولا يُستعان في الشدائد إلّا به، ولا يُلتجأ إلّا إليه، ولا يُسجد إلّا له، ولا يُذبح إلّا له وباسمه، يجتمع ذلك في حرف واحد، وهو أن لا يُعبد بجميع العبادات إلّا هو[١].

فهذا هو حقيق شهادة أن لا إله إلّا الله، ولهذا حرّم الله على النار من شهد أن لا إله إلّا الله حقيقة، ومحال أن يدخل النار من تحقّق هذه الحقيقة وقام بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]، فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره، وفي قلبه وقالبه[٢].

لقد عُرفت (لا إله إلّا الله) لدى المسلمين (بكلمة التوحيد) و (كلمة الإخلاص) و(كلمة التقوى).

وكانت (لا إله إلّا الله)، ولا زالت نداءً عالميّاً لتحرير الإنسان من عبوديّة الإنسان والطبيعة وكلّ من خُلِق، وكانت (لا إله إلّا الله) عنوان منهج الله الذي لا تعنو الوجوه إلّا له، ولا تنقاد القلوب إلّا لحكمه، ولا تخضع إلّا لسلطانه[٣].

أ- فضل كلمة (لا إله إلّا الله):

هذا الكلمة التي نطق بها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونادى به ربّه، واستعان به وهو في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطون الحوت، وظلمة القلق والهمّ والغمّ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ورد في كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفضائل الجمّة

(١) سلسلة أركان الإيمان، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٥م، (١/ ٢٢)؛ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، ٢٠٠٧م، ص٢٢.

(٢) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ١٩٠٥م، ص٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

لهذه الكلمة، والخصال العديدة، والأوصاف الحميدة، ما يصعب استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرّع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووُضعت الدواوين، وقام سوق الجنّة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفّار، والأبرار والفجّار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحقّ الذي خُلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نُصبت القبلة، وعليها أُسّست الملّة، ولأجلها جُرّدت سيوف الجهاد، وهي حقّ الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يُسأل الأوّلون والآخرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتّى يُسأل عن مسألتين:

ماذا كنتم تعبدون؟

وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأوّل: بتحقيق (لا إله إلّا الله) معرفة، وإقراراً، وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق (أنّ محمّداً رسول الله) معرفة، وإقراراً، وانقياداً، وطاعة[1].

وممّا ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصفت بالكلمة الطيّبة، والقول الثابت، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

(١) زاد المعاد، (١/ ٣٤).

وأنّها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن فضائلها أنّ الرسل جميعهم أُرسلوا مبشّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، إلى غير ذلك من الفضائل التي ذكرت في القرآن الكريم.

وأمّا ما ورد في السنّة المشرّفة فكثير جدّاً، نذكر منه بعضها:

فمن ذلك أنّها أفضل شُعَب الإيمان، فقد ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستّون شعبة، أفضلها قول لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»(١).

- ومن فضائلها أنّ الجهاد أُقيم من أجل إعلائها، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله**»(٢).

- ومن فضائلها أنّها ترجح بصحائف الذنوب، كما في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامة، فينشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ، ثم يقولُ: أتُنكِرُ من هذا شيئًا؟ أظلَمَكَ كَتَبَتي الحافظونَ؟ يقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أفَلَكَ عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لكَ عندنا حسنةً،**

(١) مسلم، كتاب الإيمان، رقم٣٥.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، رقم٢٢.

وإنِّه لا ظلمَ عليكَ اليومَ، فيُخرِجُ بِطاقةً فيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احضُرْ وزنَكَ، فيقولُ: يا ربِّ ما هذهِ البِطاقةُ معَ هذه السِّجِلَّاتِ؟ فقال: فإنك لا تُظلَمُ، قال: فتوضعُ السِّجِلَّاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السِّجِلَّاتُ وثقُلتِ البِطاقةُ، ولا يَثقُلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ»[1].

ب- أفضل الذكر (لا إله إلّا الله):

إنّ ذكر الله من أفضل العبادات المقرّبة إلى الله تعالى وأجلّها، وأعظمها أجراً، مع سهولته ويسره على من يسّره الله عليه.

هذا وإنّ أفضل أنواع الذكر بعد القرآن العظيم هو قول المرء (لا إله إلّا الله)، وهي كلمة التوحيد، كما ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «**أفضل الذكر لا إله إلّا الله**»[2].

وهذه الكلمة الجليلة واجبة على كلّ مسلم أن يتعلّمها، ويعلم مضمونها، ومعناها، وشروطها، وأركانها، وكلّ ما يتعلّق بها، لأنّها الكلمة التي يصير بها المرء مسلماً، فهي الفيصل بين الكفر والإسلام، ولأنّ الله جَلَّ جَلَالُهُ أمر أفضل خلقه وخاتم رسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلم كلّ ما يتعلّق بها، ويعتقده في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقد ذمّ الله سبحانه من استكبر عنها، وأعرض عنها، وترك العمل بها في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

---

(١) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار التأصيل، ٢٠٠٦م، ك الإيمان، رقم٢٦٣٩، حسن غريب، وسنن ابن ماجه، ك الزهد، رقم٤٣٠٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم٣٢٨٣.

ولقد وصف الله سبحانه نفسه بما تضمّنته هذه الكلمة في غير موضع في كتابه،

- فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

- وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥].

- وحقّقها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما حكى الله بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨][1].

جـ- التوافق بين (لا إله إلّا الله) و ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾:

إنّ معنى (لا إله إلّا الله) تضمّنه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذه الآية متضمّنة لأجَلّ الغايات، ففيها يُسْرُ الخلق والأمر، وفي الدنيا والآخرة، وهي متضمّنة لأجلّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلّ الغايات عبوديّته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحقّ العبادة إلّا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلّ الوسائل، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما:

وإن توحيد الربوبيّة، وتوحيد العبادة، وتضمّنت التعبّد باسم الربّ واسم الله، فهو يُعبد بألوهيّته، ويُستعان بربوبيّته، ويُهدى إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أوّل السورة ذكر اسمه (الله) و (الربّ) و (الرحمن)، تَطابقاً لأجلّ المطالب من عبادته، وإعانته، وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كلّه، ولا يُعين على عبادته سواه، ولا يَهدي سواه[2].

---

(١) أركان الإيمان، الصلابي، (١/ ٢٦).

(٢) العقيدة في الله، عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة ١٢، ١٩٩٩م، ص٩٦.

د- شروط (لا إله إلّا الله):

إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما نادى ربّه في الظلمات كانت شروط (لا إله إلّا الله) متحقّقة في دعائه، واستغاثته، ورحم الله وهب بن منبه حين سُئل: أليست (لا إله إلّا الله) مفتاح الجنّة؟ قال: "بلى، ولكن ليس مفتاح إلّا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلّا لم يفتح لك"(١).

وهذه الأسنان شروط هذه الكلمة العظيمة(٢)، والتي عددها سبعة عند العلماء، وليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عاميّ اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له عددها لم يُحسن ذلك، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً في ما يناقضها، والتوفيق بيد الله(٣).

وإليك هذه الشروط مع أدلّتها من كتاب الله تعالى، وسنّة نبيه، مع الاختصار:

- العلم بمعناها، نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها:

قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي الصحيح قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة**»(٤).

---

(١) البخاري، ك الجنائز، (١/ ٤١٧)، البخاري، في تاريخ الكبير، رقم٢٦١.

(٢) مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني، مدار الوطن للنشر، ط١، ١٩٠٠م، ص٢١.

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٩م، (١/ ٣٧٧).

(٤) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ك الإيمان، رقم٢٦.

- اليقين المنافي للشكّ:

وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلاّ دخل الجنّة**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبه، فبشّره بالجنّة**».

- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاءِ مَن قَبلَها، وانتقم ممّن ردّها وأباها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وقال تعالى عن الذين كذّبوا بهذه الكلمة، ورفضوها، ولم يقبلوها: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

- الانقياد لما دلّت عليه المنافي لترك ذلك:

قال الله سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، رقم٢٧.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

- الصدق المنافي للكذب:

وذلك بأن يقولها صدقاً من قلبه يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله صدقاً من قلبه، إلّا حرّمه الله على النار**»[١].

- الإخلاص:

أي: تصفية العمل الصالح النيّة عن جميع شوائب الشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلّا الله خالصاً من قلبه أو نفسه**»[٢].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إنّ اللهَ حرّم على النّارِ من قال: لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب العلم، رقم١٢٨.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، رقم٤١٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

- المحبّة لهذه الكلمة، ولما اقتضته، ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها، الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممّن سواه، وأن يحبَّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(٢).

ومحبّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تتمّ إلّا بمحبّة ما يحبّه، وكره ما يكرهه، وطريق معرفة ذلك هو اتّباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبّته، فمحبّة الله تستلزم محبّة الرسول، واتّباعه، وطاعته(٣).

فهذه الشروط من حقّقها، وعمل بها، وابتعد عمّا يناقضها أوجب له مغفرة الذنوب بإذن الله تعالى.

هـ- ارتباط (لا إله إلّا الله) بالولاء والبراء:

ولمّا كان أصل الموالاة الحبّ، وأصل المعاداة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنُّفرة، والأنس،

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، رقم١٦.
(٢) البخاري، رقم١٥.
(٣) أركان الإيمان، (١/ ٣١).

والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك، فإنّ الولاء والبراء من لوازم (لا إله إلّا الله)، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوثق عُرى الإيمان الحبُّ في الله، والبغض في الله**»(١).

لقد ضرب الأنبياء والمرسلون النموذج والأسوة الحسنة في الولاء لربّ العالمين، والبراءة، ومعاداة أعداء الله عَزَّوَجَلَّ، مع الحرص على هدايتهم وإرشادهم للخير وللصراط المستقيم.

والأمثلة على أنّ من لوازم (لا إله إلّا الله) الولاء والبراء كثيرة، منها قصّة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنه وزوجه، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه وقومه، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع امرأته وقومه، ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وغيرها من القصص.

ولقد جمعت (لا إله إلّا الله) صهيباً الروميّ، وبلالاً الحبشيّ، وسلمان الفارسيّ، وأبا بكر العربيّ القرشيّ، وتوازت عصبيّة القبليّة والجنس والأرض، وقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوها فإنها منتنة**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منّا من دعا إلى عصبيّة، وليس منّا من قاتل على عصبيّة، وليس منّا من مات على عصبيّة**»(٣).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، دار الرشد، الرياض، ط١، ١٩٨٩م، (٧/ ٨٠)، رقم٣٤٣٣٨.

(٢) مسلم، رقم ٢٥٨٤.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٥١٢١.

وتبقى سيرة المصطفى، والأنبياء، والمرسلين، وصحابة رسول الله، والأخيار، رضوان الله عليهم، منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل، ورضي بذلك النهج القويم(١).

إنّ نداء ودعاء واستغاثة سيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] له آثار عظيمة في حياة المؤمن؛ فبهذه الكلمة لا يكون ضيّق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعدّدة.

وهذه الكلمة تجعل المؤمن متوكّلاً على الله يخوض المعامع ابتغاء مرضاته بحكمة واتّزان، لأنّه لا نافع إلّا الله، ولا ضارّ إلّا الله، وهو المحيي والمميت، وهو الحكيم القويّ، مالك الملك، ومن ثمّ ينزع من القلب كلّ خوف إلّا منه سبحانه(٢)، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرّع إلّا إليه، ولا يتكفّف إلّا له، ولا يرهب إلّا من كبريائه وعظَمَته، لأنّ لله وحده الكبرياء والعظَمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد(٣).

والمؤمن بـ(لا إله إلّا الله) لا يتسرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنّه يؤمن بأنّ الله له خزائن السماوات والأرض، ومن ثمّ فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتّى لو طُرِد وأُهين، وضاقت عليه سُبُل العيش.

والإيمان بهذه الكلمة يربّي الإنسان على قوّة عظيمة من العزم، والإقدام، والصبر، والثبات، والتوكّل، حينما يطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضات الله،

(١) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، ٢٠٠٦م، ص١٥٨.
(٢) أركان الإيمان، (١/ ٣٥).
(٣) مبادئ الإسلام أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، ٢٠١٧م، ص٨٧.

وإنّه يشعر قوّة مالك السماء والأرض، فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدّها من هذا التصوّر، كالجبال الراسية، وأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوّة والثبات؟

إنّ إيمان المرء بـ (لا إله إلّا الله) يرفع قدر الإنسان، وينشئُ فيه الترفّع والقناعة والاستغناء، ويطهّر قلبه من أوساخ الطمع، والشره، والحسد، والدناءة، واللوم، وغيرها من الصفات القبيحة.

والإيمان بـ (لا إله إلّا الله) يجعل الإنسان متقيّداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنّ المؤمن يعتقد يقين أنّ الله خبير بكلّ شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأنّه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيّ كان فإنّه لا يستطيع أن يفلت من الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدوده، لا يجرؤ على اقتراف ما حرّم الله، ويسارع إلى الخيرات، والعمل بما أمر الله، لذا فالعبد الذي ملأ قلبه إيماناً بـ (لا إله إلّا الله) هو في الحقيقة عبد مطيع منقاد لربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا هو أصل الإسلام، وهو مصدر قوّته، وكلّ ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنّما هي مبنيّة عليه، ولا تستمدّ قوّتها إلّا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس[1].

هذا هو نداء ودعاء واستغاثة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في الظلمات، حدث خالد يتكرّر لعباد الله المؤمنين عندما يقتدون بصاحب الحوت وبذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

١- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

(١) المصدر السابق نفسه.

أي: أنزّهك عن العجز وعن الشرك، وما لا يليق بشأنك العظيم المقدّس في القدس الإلهيّة، إجراء ما أردت، وإمضاء ما شئت[١].

- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أقرّ الله تعالى بكمال الألوهيّة، ونزَّهه عن كلّ نقص وعيب وآفة، واعترَف بظلم نفسه وجنايته[٢].

-﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: تنزّهت ذاتك، وفي هذا القول معنى الضراعة الكاملة، والالتجاء إلى الله، وطلب نصرته وإنقاذه، والاستغاثة به[٣].

- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: أنزّهك تنزيهاً لائقاً بكمالك وغناك ووحدانيّتك[٤].

- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزّهت يا ربّ عن النقص والظلم، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي.

- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ فإنّ هذا اللفظ يتضمّن تعظيم الربّ وتنزيهه، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، ويقول: أنا الظالم الذي ظلمت نفسي[٥].

فالعبد عليه أن يعترف بعدل الله وإحسانه، فإنّه لا يظلم الناس شيئاً، فلا يعاقَب أحدٌ إلّا بذنبه؛ وهو يحسن إليهم، فكلّ نقمة منه عدل، وكلّ نعمة منه فضل[٦].

---

(١) تفسير البدليسي، حسام الدين علي البدليسي، المكتبة الصوفية الشاملة، ٢٠٢٢م، (٤/ ٣٤٩).
(٢) تفسير السعدي، ص٦٩٤.
(٣) زهرة التفسير، (٩/ ٤٩٠٩).
(٤) التفسير الموضوعي، (٥/ ٣٨٥).
(٥) تفسير الآية ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ابن تيمية، ص٢٣.
(٦) تفسير الآية ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ابن تيمية، ص٢٥.

إنّ من الأصول العظيمة، والأسس المتينة في توحيد الأسماء والصفات تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا عمّا لا يليق بجلاله، ويُنافي كماله من صفات النقص، كالسِّنَة، والنوم، واللغوب، والولد، والوالد، وغيرها، وعن أن يشبه هو أحداً من خلقه، تعالى وتقدّس، وتنزّه عن الشبيه والنظير والمثال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإنّ من أدلّ النصوص على هذا الأصل العظيم قول الله تعالى في مواضع عديدة من القرآن: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزّه الله، وأجلّ الله، وأبرّئ الله عمّا لا يليق به.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدّمة (العقيدة الواسطيّة) في تفسيره للآية: "فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهو قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنّة والجماعة عمّا جاء به المرسلون، فإنّه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين"[(١)].

قال شيخي وأستاذي الدكتور عبد الرزّاق عبد المحسن البدر في تقديمه لكتاب (التسبيح في الكتاب والسنّة): "والتسبيح هو التنزيه، فأصل هذه الكلمة هو السبح، وهو البُعد، قال الأزهريّ في (تهذيب اللغة): ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحتُ في الأرض إذا أبعدت فيها، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وكذلك قوله:

(١) التسبيح في الكتابة والسنة، محمد إسحاق كندو، دار المنهاج، ٢٠٠٦م، (١/ ٦).

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ [النازعات: ٣][١]، فالتسبيح هو إبعاد صفات النقص من أن تضاف إلى الله، وتنزيه الربّ سبحانه عن السوء وعمّا لا يليق به"[٢]، وأصل التسبيح لله عند العرب التنزيه له من إضافة ما ليس من صفاته إليه والتبرئة له من ذلك[٣].

ونقل الأزهريّ في كتابه (تهذيب اللغة) عن غير واحد من أئمّة اللغة تفسير التسبيح بالمعنى السابق، وقال: "وجماع معناه: بُعده تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن أن يكون له مثل، أو شريك، أو ضدّ، أو ندّ"[٤].

وبهذه النقول المتقدّمة يتبيّن معنى التسبيح، والمراد به، وأنّه تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن كلّ نقص وعيب[٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كلّ عيب وسوء، وإثبات المحامد التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده"[٦].

وبه يتبيّن أنّ تسبيح الله إنّما يكون بتبرئة الله، وتنزيهه عن كلّ سوء وعيب، مع إثبات المحامد وصفات الكمال له سبحانه على وجه يليق به[٧].

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، المصدر السابق، (١/ ٦)، تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري الهروي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، (٤/ ٣٢٨).

(٢) التسبيح في الكتاب والسنة مقدمة الكتاب، (١/ ٦).

(٣) جامع البيان، ابن جرير، (١/ ٢١١).

(٤) تهذيب اللغة، (٤/ ٣٣٩).

(٥) د. عبد الرزّاق عبد الرزاق البدر في مقدمته لكتاب التسبيح في الكتاب والسنة.

(٦) دقائق التفسير، ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، ٢٠٠٧م، (٥/ ٩)، استدل بها د. عبد الرزاق البدر.

(٧) د. عبد الرزاق البدر، انظر (التسبيح في الكتاب والسنة)، (١/ ٨).

إنّ التسبيح لله عَزَّوَجَلَّ يتضمنّ تنزيه ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كلّ نقص وغيب، وتنزيه صفاته عن كلّ سوء وذمّ، ومن مماثلة صفات المخلوقين، وتنزيه أفعاله من العبث، والظلم، والشرّ، وخلاف الحكمة(١).

والتسبيح هو التنزيه عن النقائص بالاعتقاد، والعبادة، والقول(٢).

وتفسير التسبيح بأنّه تنزيه الله تعالى عن السوء مجمع عليه لغة وشرعاً(٣).

أ- صيغة القرآن في التسبيح:

صيغة القرآن في التسبيح تعني: ورود التسبيح، في مقام الذكر والثناء على الله تعالى، مقروناً بغيره من ألفاظ الذكر والثناء والدعاء لله.

وقد ورد التسبيح بهذه الصيغة في الكتاب والسنّة في مواضع كثيرة جدّاً تفوق المواضع التي ورد فيها بصيغة الإفراد أضعافاً كثيرة(٤).

وتتنوّع صيغة القرآن في التسبيح بحسب ما قرن به لفظ التسبيح من الألفاظ الأخرى، فقد قرن التسبيح بالتحميد، وبالتهليل، وبالتكبير، وببعض أسماء الله تعالى وصفاته، وقرن بالاستغفار، وبالدعاء، وبالسلام على المرسلين، فهذه من أنواع صيغة القرآن التي تمّ ضبطها في الكتاب والسنّة(٥).

المسألة الأولى: قرن التسبيح بالتحميد:

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٧٥).
(٢) قصة بدء الخلق وخلق سيدنا آدم، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ٢٠٢٠م، ص٣٠٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ١٩٢).
(٥) المصدر السابق نفسه.

ولهذه المسألة شأن عظيم يستدعي النظر، ويستدعي الانتباه، وذلك لأنّ قرن التسبيح بالتحميد هو الأكثر وروداً في نصوص الشرع، وجاء في كتاب الله تعالى الأمر بقرن التسبيح بالتحميد في سبعة مواضع، حيث قال في أربعة منها:

- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]، [غافر: ٥٥]، [سورة ق: ٣٩]، [الطور: ٤٨].

وقال في موضعين:

- ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]، [النصر: ٣].

- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

كما في كتاب الله تعالى الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع:

- مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، ونحو ذلك من الآيات[١].

وأمّا السنّة النبويّة فورد فيها قرن التسبيح بالتحميد في أحاديث كثيرة تفوق الحصر، ومن ذلك[٢]:

حديث أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ أحبّ الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[٣].

---

(١) المصدر السابق، (١/ ١٩٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مسلم، رقم٢٧٣١.

وحديث أبي مالك الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطَّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تملآن أو تملأ، ما بين السماوات والأرض**»[١].

ولمّا كان هذا حال التسبيح مع التحميد في الكتاب والسنّة، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتحميد مقرون بالتسبيح، وتابع له"[٢]، وقال أيضاً: "فالتسبيح قرين التحميد".

وله رَحِمَهُ اللَّهُ، رسالة لطيفة بعنوان: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، وبيان اقتران التهليل بالتكبير، والتسبيح بالتحميد.

وبيّن في رسالته هذه أنّ التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات: نفي المعايب، وإثبات المحامد، وذلك يتضمّن التعظيم[٣].

وقال: "التسبيح يتضمّن التنزيه المستلزم للتعظيم، والحمد يتضمّن إثبات المحامد المتضمّن لنفي نقائضها"[٤].

إنّ صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، وأدلّها على استغراق الثناء عليه[٥].

المسألة الثانية: قرن التسبيح بالتهليل:

ورد التسبيح مقروناً بالتهليل في مواضع في الكتاب والسنّة، وذلك مثل:

---

(١) مسلم، رقم٢٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، ٢٠٠٦م، (١٠/ ٢٥١).

(٣) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية، أضواء السلف، ٢٠٠٢م، ص٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص٢٣.

(٥) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٠٧).

- قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

- فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تهليل.

- وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تسبيح.

- وقوله تعالى مخبراً عن نبيّه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

- فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ تهليل.

- وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تسبيح.

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "افتقدت النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فظننت أنّه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسّست ثمّ رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلّا أنت**»، فقلت: بأبي أنت وأمّي، إنّي لفي شأن، وإنّك لفي آخر"[(١)].

ففي هذا الذكر الذي كان يقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسبيح مقرون بالتحميد والتهليل[(٢)].

المسألة الثالثة: قرن التسبيح بالتكبير:

ورد التسبيح مقروناً بالتكبير في مواضع من السنّة، ولم يرد مثل ذلك في القرآن الكريم، ومن أمثلة التسبيح المقرون بالتكبير:

---

(١) مسلم، (١/ ٣٥١-٣٥٢)، رقم٤٨٥.

(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٠٨).

ما جاء في حديث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بينما نحن نصلّي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من القائل كلمة كذا وكذا؟**» فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: «**عجبت لها، فُتحت لها أبواب السماء**»، قال: ابن عمر: فما تركتهنّ منذ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك"[١].

فهذا الذكر، وهو (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً)؛ قرن فيه التسبيح بالتكبير والتحميد[٢].

وكلمة التكبير (الله أكبر)؛ تقتضي تفضيل الله تعالى على كلّ شيء، فيما توصف به الأشياء من الكمالات، وفيما تنزّه عنه من النقائص[٣]. ولأنّها أفعل تفضيل يدلّ على أنّه أكبر من كلّ شيء بجميع الاعتبارات[٤].

فهو أكبر من كلّ شيء في أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، كما هو فوق كلّ شيء، وعالٍ على كلّ شيء، وأعظم من كلّ شيء، وأجلّ من كلّ شيء، في ذاته وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، فلا يساويه شيء في شيء من ذلك[٥].

وهذا المعنى العظيم الذي دلّ عليه التكبير إذا تأمّلته وجدته بينه وبين التسبيح مناسبة تامّة، فكلّ منهما يتضمّن التعظيم، والإجلال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولأنّ التسبيح

---

(١) مسلم، (١/ ٤٢٠)، رقم٦٠١.

(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢١٠).

(٣) فتاوى ابن تيمية، (٥/ ٢٣٩).

(٤) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن تيمية، دار عطاءات العلم للنشر، ٢٠٢١م، (٤/ ١٣٧٨).

(٥) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ص٢٣.

دالّ على أنّه سبحانه منزّه عن النقائص كلّها، وعن الأمثال بأنواعها، وهذه الدلالة تتضمّن أيضاً أنّه تعالى أكبر من كلّ شيء، وأنّه لا مثل له، لأنّ كلّ شيء لا بدّ أن يكون فيه نقص، ولا بدّ أن يكون له مثل، والله تعالى وحده الذي له الكمال المطلق الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، وليس كمثله شيء في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أقواله وأفعاله، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وإذا قرن بين التسبيح والتحميد والتكبير، نشأت من اقتران الثلاثة دلالة أخرى، لأنّ التسبيح يتضمّن في النقائص والعيوب، والتحميد يتضمّن إثبات صفات الكمال التي يُحمد عليها، والتكبير تفصيل لما تضمّنه التسبيح والتحميد من النفي والإثبات، فإنّ كلّ ذلك إمّا أن يكون مختصّاً به، أو ليس كمثله شيء فيه[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى ورود التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مقترنة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، أخبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس**»[٢].

المسألة الرابعة: قرن التسبيح بأسماء الله تعالى وصفاته:

ولهذه المسألة أيضاً أهمّية خاصّة؛ لأنّ لفظة التسبيح (سبحان) لازمة الإضافة في الكلام، والغالب أن تضاف إلى لفظ الجلالة مثل (سبحان الله)، أو إلى لفظ (ربّ) مثل: (سبحان ربّي)، أو إلى ضمير عائد إلى الله تعالى مثل(سبحانك)، و(سبحانه).

وقد جاء في كتاب الله تعالى الأمر بالتسبيح باسم الله، كما تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، [الحاقة: ٥٢].

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢١٢).

(٢) مسلم، (٤/ ٢٠٢)، رقم٢٦٩٥.

والأمر تسبيح اسمه، كما قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١-٧][1].

المسألة الخامسة: قرن التسبيح بالاِستغفار:

ورد التسبيح مقروناً بالاستغفار في مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وهذه الآية خبر عن تسبيح حمَلَة العرش، واستغفارهم للمؤمنين[2].

- وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

هذه الآية خطاب من الله تعالى لرسوله محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتضمّن أمره بالاستغفار مع التسبيح.

- وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

وهذه الآية أيضاً خطاب للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه أمر بالتسبيح مع الاستغفار، وقد دلّت هذه الآيات جميعاً على مشروعيّة الجمع بين التسبيح والاستغفار،

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢١٢).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٢٤١).

وأهمّيّة ذلك، وجاءت السنّة النبويّة مبيّنة لذلك ومؤكّدة له، حيث كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه) كما ثبت في الحديث عن عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١].

وفي الحديث عن عائشة أيضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك اللهمّ اغفر لي، يتأوّل القرآن**»[٢].

وفي هذين الحديثين دلالة على أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرن التسبيح بالاستغفار، ويكثر من ذلك، وأنّ قرن التسبيح بالاستغفار يكون بالصيغتين الواردتين فيهما، ونحوهما[٣].

وهناك مناسبة للقرن بين التسبيح والاستغفار، فإنّ التسبيح فيه نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، والاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد وعيوبه، ووقايته من شرّها[٤].

فإذا قرن العبد بينهما تضمّن ذلك إقراره بكمال الربّ عَزَّوَجَلَّ، وتنزّهه عن العيوب والنقائص، مع الإقرار بنقص العبد وتقصيره وافتقاره إلى ربّه، وإلى ستره ووقايته وغفرانه.

إنّ هذين الإقرارين من أهمّ الأمور التي تتحقّق بها العبوديّة لله تعالى، علماً وعملاً وحالاً، وبهذا يعرف ما في صيغة التسبيح المقرون بالاستغفار من الدلالات العقديّة،

(١) مسلم، (١/ ٣٥١)، رقم٤٨٤.
(٢) البخاري مع فتح الباري، (٢/ ٢٩٩)، رقم٨١٧.
(٣) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٤٢).
(٤) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير أبو سعادات، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، (٣/ ٣٧٣).

والمعاني التعبديّة، وأنّ على العبد أن يتحقّق بهذه الدلالات والمعاني، ويكثر من تسبيح ربّه، والاستغفار من عيوب نفسه، لينال السعادة بإذن ربّه وتوفيقه[١].

- المسألة السادسة: قرن التسبيح بالدعاء:

ورد قرن التسبيح بالدعاء في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذ الآية في بيان أوصاف المؤمنين الذين منَّ الله تعالى عليهم بالعقل السليم والإيمان الصحيح، فرأوا ببصائر عقولهم وعيونهم عظَمَة ربّهم، وكماله، ولهذا فهم يداومون ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم، ويخصّصونه بالدعاء، طلباً لما ينفعهم، ودفعاً لما يضرّهم.

كما يتجلّى ذلك في قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ حيث قرنوا فيه التسبيح بالدعاء بـ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تسبيح، و﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ دعاء بالوقاية من عذاب النار[٢]. وإن في القرن بين التسبيح والدعاء مناسبات عقديّة من أوجه:

أحدها: أنّ التسبيح يدلّ على تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق بكماله وعظَمَته، والدعاء يدلّ على حاجة العبد وافتقاره، وأنّه لا حول له ولا قوّة إلّا بالله ربّ العالمين.

والثاني: أنّ فيه تقديم ذكر الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله بين يدي سؤاله، وهذا من أفضل الوسائل وأحبّها إلى الله تعالى.

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٤٣).

(٢) المصدر السابق، (١/ ٢٤٤).

والثالث: أنّ فيه توجّهاً إلى الله تعالى بنوعين من الدعاء، وهما: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، وهما من مفهوم الدعاء الذي شرّعه الله تعالى لعباده في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠][1].

فهذه من المناسبات العقديّة لقرن التسبيح بالدعاء، وينبغي للعبد معرفتها والحرص على تحقيقها، ليكون ممّن وصفهم الله تعالى في الآية السابقة، وبالله التوفيق[2].

- المسألة السابعة: قرن التسبيح بالسلام على المرسلين:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

حيث قرن الله تعالى في هذا الموضع بين التسبيح لنفسه، والسلام على المرسلين، والحمد لنفسه أيضاً.

وقد بيّن أهل العلم أنّ الله تعالى بدأ بالتسبيح تنزيهاً لنفسه عمّا يصفه به الواصفون المفترون، ثمّ سلّم على المرسلين تشريفاً لهم وتنويهاً بشأنهم، لسلامة ما وصفوه من النقائص والعيوب، ومن التمثيل والتعطيل، ولسلامة ما قالوه من الإفك والشرك، ثمّ حمد نفسه، بعد ذلك، على تفرّده بصفات الكمال التي يستحقّ لأجلها كمال الحمد، والتنزيه عن كلّ نقص وعيب وتمثيل وشرك[3].

كما أنّ في قرنه تعالى التسبيح بالسلام على المرسلين إشارة إلى أنّه كما يجب تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ، وإبعاده عن كلّ شائبة نقص وعيب، فيجب اعتقاد سلامة الرسل

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار عالم الفوائد، ٢٠١٣، (٢/ ٥)، تفسير السعدي، ص٧٤٠.

(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٤٤).

(٣) العقيدة الواسطية، ابن تيمية، مؤسسة الدرر السنية، ٢٠١٢م، ص٧٥-٧٦.

في أقوالهم وأفعالهم من كلّ عيب كذلك، فلا يكذبون على الله، ولا يشركون به، ولا يغشّون أُمَمهم، ولا يقولون على الله إلّا الحقّ[١].

ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠].

فنزّه سبحانه نفسه عمّا يصفه به كلّ أحد إلّا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن تبعهم[٢].

لأنّهم لم يصفوا الله تعالى من عند أنفسهم، وإنّما وصفوه سبحانه بما أذن لهم في وصفه به ممّا تضمّنه وحيه المبين من أسمائه الحسنى وصفاته العليا[٣].

ومن هنا كان في قرنه تعالى التسبيح لنفسه بالسلام على المرسلين حكمة عظيمة، أوضحها الإمام ابن قيّم الجوزيّة بقوله: "وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سرّ عظيم من أسرار القرآن، يتضمّن الردّ على كلّ مبطل ومبتدع، فإنّه نزّه نفسه تنزيهاً مطلقاً، كما نزّه نفسه عمّا يقول خلقه فيه، ثمّ سلّم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كلّ ما يقول المكذّبون لهم المخالفون، وإذا سَلِموا من كلّ ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كلّ ما جاؤوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاؤوا به التوحيد ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله ممّا وصف به نفسه على ألسنتهم.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل الهراس، دار الهجرة، ٢٠١٨م، ص٧٦.

(٢) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، دار الجزري، ٢٠٠٧م، ص٢٧٥.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، (٣/ ٤٨١).

وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد، فهو الحقّ المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب والمحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

فإنّه يتَضمّن حمده بما له من نعوت الكمال، وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كلّ عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمّن سلامة ما جاؤوا به من كلّ باطل.

فتأمّل هذا السرّ في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، والله تعالى الموفّق والهادي إلى سواء السبيل"[١].

ب- أفضل الكلام عند الله:

في دعاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ التهليل والتسبيح.

- ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ تهليل.

- ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ تسبيح.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «**أفضل الكلام بعد القرآن، وهنّ من القرآن، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر**»[٢].

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له[٣].

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، (١/ ٢٤٦).

(٢) مسلم، في الآداب من صحيحه، (٢/ ١٦٨٥).

(٣) تفسير ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ابن تيمية، ص٢٧.

وفي الصحيح عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه سُئل أيّ الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته، سبحان الله وبحمده**»(١).

وفي الصحيحين عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٢).

وفي القرآن: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣].

وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فقرن التسبيح بالتحميد، وقرن التهليل بالتكبير، كما في كلمة الأذان، ثمّ إنّ كلّ واحد من النوعين يتضمّن الآخر إذا أفرد: فإنّ التسبيح والتحميد يتضمّن التعظيم، ويتضمّن إثبات ما يحمد عليه، وذلك يستلزم الإلهيّة، فإنّ الإلهيّة تتضمّن كونه محبوباً، بل تتضمّن أنّه لا يستحقّ كمال الحبّ إلّا هو، والحمد هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحقّ أن يحبّ، فالإلهيّة تتضمّن كمال الحمد، ولهذا كان (الحمد لله) مفتاح الخطاب، و (سبحان الله) فيها إثبات عظَمته كما قدّمنا، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

وقد قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجعلوها في ركوعكم**»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأمّا في الركوع فعظّموا فيه الربّ، وأمّا في السجود، فاجتهدوا فيه بالدعاء، فَقَمِنٌ أن يُستجاب لكم**»(٤). فجعل التعظيم في الركوع أخصّ منه بالسجود؛ والتسبيح يتضمّن:

---

(١) مسلم، رقم٢٧٣١.

(٢) سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، رقم٥٨٥.

(٣) سنن أبي داود، (١/ ٥٤٢)، رقم٨٦٩.

(٤) رواه مسلم، ك الصلاة، (١/ ٢٤٨)، رقم٤٧٩.

ففي قوله: (سبحان الله وبحمده) إثبات تنزيهه، وتعظيمه، وإلهيّته، وحمده.

وأمّا قوله: (لا إله إلّا الله والله أكبر)، ففي (لا إله إلّا الله) إثبات محامده، فإنّها بأكملها داخلة في إثبات إلهيّته، وفي قوله: (الله أكبر) إثبات عظَمته، فإنّ الكبرياء تتضمّن العظَمَة، ولكن الكبرياء أكمل.

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان، يقول: (الله أكبر)، فإنّ ذلك أكمل من قول الله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظَمَة إزاري، فمن نازعني واحداً منها عذّبته**»[1].

فجعل العظَمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أنّ الرداء أشرف، فلمّا كان التكبير أبلغ من التعظيم صرّح بلفظه، وتضمّن ذلك التعظيم، وفي قوله (سبحان الله) صرّح فيها بالتنزيه من السوء المتضمّن للتعظيم، فصار كلّ من الكلمتين متضمّناً معنى الكلمتين الأخريين إذا أفردنا، وعند الاقتران تُعطى كل كلمة خاصّيتها، وهذا كما أنّ كلّ اسم من أسماء الله فإنّه يستلزم معنى الآخر؛ فإنّه يدلّ على الذات، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر، لكن هذا باللزوم، وأمّا دلالة كلّ اسم على خاصّيته وعلى الذات بمجموعها فبالمطابقة، ودلالتها على أحدهما بالتضمّن، فقول الداعي: (لا إله إلّا أنت سبحانك) يتضمّن معنى الكلمات الأربع اللاتي هنّ أفضل الكلام بعد القرآن، وهذه الكلمات تتضمّن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح[2].

---

(١) رواه مسلم، رقم٢٦٢٠.

(٢) تفسير الآية الكريمة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ص٣٢.

٢- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛

اعتراف العبد بظلمه وندمه، والانطراح بين يدي ربّه مفتقراً إليه، مستغنياً، مع الإقرار بالألوهيّة، وتسبيح وتنزيه الله عن أيّ نقص في ذاته وأفعاله منجاة من الكرب والغمّ، ومن أعظم ما يكشف الغمّ دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت[١] ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يُبرّئ نفسه عن هذا الوصف، لا سيما في مقام مناجاته لربّه[٢].

- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: لنفسي عندما تركت قومي قبل أن تأذن لي[٣].

- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فاعترافه بالظلم هنا هضم للنفس، واستعظام لما صدر عنها مبالغة في التضرّع، أي أنّه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل، فكان ذلك ظلماً، وعلى هذا الوجه أقرّ على نفسه بأنّه كان من الظالمين، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فلمّا وضع سيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم، لا على أنّه قصده وهو يدري أنّه ظلم[٤].

---

(١) القرآن علمني، عبد العظيم بدر الدين عرنوس، دار حنين للنشر، ٢٠٢٢م، ص١٤٥.

(٢) تفسير الآية الكريمة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ص٣٢

(٣) التفسير الموضوعي، (٤/ ٣٨٥).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي، دار الجيل، ٢٠١٦م، (٤/ ١٨)؛ تفسير الرازي، (٢٢/ ٢١٥).

وفيه وجه آخر: وهو أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بكمال الربوبيّة، ووصف نفسه بقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بضعف البشريّة، والقصور في أداء حقّ الربوبيّة[١].

إنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرتكب ذنباً، وإنّما خالف الأولى بتركه قومه، والدليل على ذلك أنّه لم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى طلبه المغفرة، أو أنّه أذنب عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل غاية ما هنالك أنّه شعر أنّه خالف الأولى، فتوجّه مستغيثاً ضارعاً إلى الله تعالى أن ينجّيه من همّه وكربه[٢].

ومن الدروس العظيمة في قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

– إنّ المؤمن عليه أن لا ييأس من روح الله تعالى، بل يلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ إذا شعر بالضيق، فيتضرّع إليه، ويتذلّل له حتّى يكشف عنه كربه.

– الاعتراف بالتقصير والضعف البشريّ من الأمور التي ينبغي للتائب أن يتقرّب بها إلى الله تعالى، فيتذلّل بها إليه؛ مستشعراً عظَمَة الله، وربوبيّته المطلقة المنزّهة عن كلّ نقص وعجز.

– إنّ على التائب أن يستشعر دائماً أنّ التوفيق للتوبة والصالح من الأعمال إنّما هو من خالص فضل الله تعالى، فلا تتمّ توبة، ولا عمل ولا طاعة إلّا بتوفيق منه وهداية عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي الخير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، = = ٢٠٠٨م، (٢/ ٧٧)؛ شرح المقاصد، الإمام مسعود بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، عالم الكتب، ٢٠١٦م، (٥/ ٨٥).

(٢) التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٨م، ص٢٩١.

- إنّ في تضرّع يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ واعترافه بظلم نفسه، وهو مخالفته للأَولى، لفتة عظيمة لمن ارتكب المعاصي بأن يتذلّل ضارعاً لله أن يتقبّل منه توبته، ويغفر زلّاته[١].

- نرى من خلال قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ صاحب النفس اللوّامة يتّسم بشفافية الروح، ورقّة الفؤاد، فيلوم نفسه على ما أخطأ، ويديم محاسبة نفسه في كلّ أفعاله، فيُسرع الإنابة إلى ربّه كما أناب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

رابعاً: قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]:

العلاقة بين نداء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ والاستجابة له من ربّ العالمين واضحة في السياق القرآنيّ الكريم، فهو على سنن إخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يدعو فيُستجاب له، وليس بِدْعاً منهم ولا عنهم، فلهم مكانة عظيمة عند القريب المجيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

١- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾؛

بفاء التعقيب، ونون العظَمة، على سبق من سبق؛ جاء هذا التعبير، أي: فأجبنا له طلبه، ونداءه، واستغاثته، واستجارته[٣].

فالله سميع، وسع سمعه الأصوات كلّها، ولهذا سمع نداء يونس وهو في بطن الحوت، والله بصير، أحاط بصره بالمرئيّات كلّها، ولهذا رأى يونس وهو في بطن الحوت، والله عالم بكلّ شيء، فعلم أحوال يونس وهو في بطن الحوت.

(١) المصدر السابق، ص٢٩٢.

(٢) الدروس المستفادة من القصص القرآني، نصرة إبراهيم، دار عباد الرحمن، دار البشير، ٢٠٢٣م، ص١٣٧.

(٣) تفسير سورة الأنبياء، د.أحمد نوفل، ص٢٣٣.

إنّه لا يوجد ما هو بعيد عن الله، فكلّ شيء عند الله قريب منه، ومن كان على وجه الأرض من البشر فهو قريب من الله، ومن كان في أعماق البحر فهو قريب من الله، وسع الله الجميع بعلمه، وسمعه، وبصره[١]، وقدرته، وحكمته، ومشيئته، وإرادته.

أخبرنا الله أنّه استجاب ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا ناداه، ونجّاه من الغمّ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ بنون العظَمة، ونون الجمع والله واحد، وهذا من أساليب اللغة العربيّة، ونون العظَمة لتعظيم الاستجابة والمجيب، وكيف لا وهي من العظيم المجيب القريب سبحانه.

ووصل الضمير، الهاء باللام ﴿لَهُۥ﴾، وكان يمكن الاكتفاء بالقول ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾، ولكن عبّر بهذه الطريقة، لتخصيص الاستجابة وتقويتها[٢].

وهذه الاستجابة رحمة من الله في نبيه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقدّر الله أن يجعلها مترتّبة على الدعاء، فالدعاء سبب في الاستجابة، لكنّ المسبِّب والمقدِّر والمريد هو سبحانه، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إنّ استجابة الله لدعاء عباده سنّة ثابتة، وعبادة عظيمة قام بها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ غاية القيام مبيّناً فقره المطلق لله عَزَّوَجَلَّ في كلّ أحواله وشأنه.

إنّ المؤمن بالله إيماناً حقيقيّاً يعلم أنّه فقير إلى الله فقراً مطلقاً في كلّ الأحوال، راضياً بقضاء الله وقدره في كلّ الظروف والأزمان[٣].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥٧).

(٢) تفسير سورة الأنبياء، ص٤١٣.

(٣) من سنن الله في عباده، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، ٢٠١١م، ص١٧٧.

٢- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾:

إن الله تعالى يقول: إنّه نجّى، ولكن بنون العظَمَة؛ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: إن عبدنا يونس ذا النون خلّصناه وأنقذناه من الغمّ والحزن والضيق، وهذا من لطف الله تعالى بعبده ونبيه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومحبّته له، ورحمته به، وكان ذلك بتعظيم الاستجابة، والتنجية، وإلحاقها بالمؤمنين أجمعين، فسبحانه من إله رحيم كريم[١].

- ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ قيل: غمّ الحبس في بطن الحوت، وقيل: غمّ الزلّة[٢].

وقال العلّامة محمّد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغمّ هو الألم الذي يضم النفس ويصيبها بغمّة شديدة وهمّ واصب، وذلك من أثر المغاضبة التي غاضب بها قومه"[٣]، وخرج مجافياً لهم.

٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بشارة لكلّ مؤمن يقتدي بيونس في إخلاصه وصدق توبته، ودعائه لربّه، أي: ومثل هذا الإنجاء فعلناه مع عبدنا يونس، ننجّي عبادنا المؤمنين من كلّ غمّ، متى صدقوا في إيمانهم، وأخلصوا في دعائهم[٤].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ متعلّقة بما قبلها، وهو إنجاء الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والتقدير: كما أنجينا يونس من الغمّ وأنقذناه من الخطر، وأخرجناه سالماً معافى، كذلك نفعل

(١) تفسير سورة الأنبياء، ص٤٣٥.
(٢) التيسير في التفسير، أبي حفص النسفي، دار اللباب، ٢٠١٩م، (١٠/ ٤٣٥).
(٣) زهرة التفاسير، (٩/ ٤٩٠٩).
(٤) القصة في القرآن الكريم، ص٧٢٠.

بكلّ مؤمن صالح، فإذا وقع في غمّ وكرب، ثمّ دعانا وتضرّع إلينا، فإنّنا نستجيب له كما استجبنا ليونس، ونُنْجِيه كما أنجينا يونس[١].

لقد جعل الله الحديث عن إنجائه ليونس فرصة مناسبة لتقرير حقيقة إنجائه للمؤمنين المكروبين، وهذا يفتحُ باب الأمل والرجاء لهؤلاء ليستشرفوا الفرح وينتظروه وهم في أشدّ حالات الغمّ والكرب، وما عليهم إلّا أن يفعلوا كما فعل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيُقبِلوا على الله بتضرّع وإنابة واستغاثة، وليُوقنوا أنّ الله سينجيهم ويفرّج عنهم، كما فعل مع يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا وعده لهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والله لا يخلف الميعاد[٢].

خامساً: رفع البلاء بالدعاء:

عن سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "مررت بعثمان في المسجد، فسلّمت عليه، فملأ عينه منّي ثمّ لم يردّ عليّ السلام، فأتيت عمر فقلت له: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا، ولماذا ذاك؟ قال: قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليّ السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألّا تكون رددت على أخيك السلام؟ فقال: عثمان: ما فعلت ولا سلّم عليّ، فقال سعد: بلى مررت عليك، فسلّمت عليك، فملأت عينك منّي وما رددت عليّ السلام، قال: والله إنّي ما رأيتك، فحلف عثمان، وحلف سعد، ثمّ بعد ذلك تذكّر عثمان فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنّك مررت بي آنفاً، وأنا أحدّث نفسي بكلمة قالها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) القصص القرآني، (٤/ ٥٩).
(٢) القصص القرآني، المصدر السابق، (٤/ ٥٩).

لا والله ما ذكرتها قطّ إلّا تغشّى قلبي وبصري غشاوة، قال سعد: فأنا أنبّئك بها، إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر لنا أوّل دعوة، فجاء أعرابيّ فشغله، حتّى قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتّبعته، فلمّا أشفقت أن يسبقني إلى البيت قبل أن أصل إليه ضربت بقدمي الأرض حتّى ينتبه لي النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**مَن هذا؟ أبو إسْحاقَ؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**فمَهْ؟**» قال: قلت: لا والله، إلّا إنّك ذكرت لنا أوّل دعوة ثمّ جاء هذا الأعرابيّ فشغلك، وما سمعنا هذه الدعوة، فقال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعمْ، دَعْوةُ أخي ذي النُّونِ إذ هو في بَطْنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّه لم يَدْعُ بِها مُسلِمٌ رَبَّه في شيءٍ قَطُّ إلَّا اسْتَجابَ له**»"[1].

وإن الشاهد في الحديث الجملة الأخيرة، حيث صرّح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعميم استجابة الله لدعاء يونس على كلّ مسلم، فأيّ مسلم يدعو الله بدعوة يونس فإنّ الله يستجيب له دعوته، ويتضمّن دعاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ اسم الله الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى[2].

وقد روى سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، دعوة يونس بن متّى**»، فقلت: يا رسول الله، هي ليونس بن متّى خاصّة أم للمسلمين عامّة؟ قال: «**هي للمسلمين عامّة، ألم تسمع قول الله**: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[3].

---

(١) سنن الترمذي، رقم٣٥٠٥، النسائي في الكبرى، رقم ١٠٤٩١، الأحاديث الصحيحة، رقم١٧٦.

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٦١).

(٣) تفسير ابن كثير، (٣/ ١٨٨).

وروى ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث السابق: "عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن البصريّ فقلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، ما هو؟ قال الحسن: يا ابن أخي: أما تقرأ القرآن؟ إنّه في قول الله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يا ابن أخي: هذا اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى"[١].

فعلى المسلمين أن يُكثروا من الدعاء بدعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ليستجيب الله لهم، كما ورد في صريح القرآن، وصحيح السنّة[٢].

وقال الشيخ عبد المقصود عسكر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد وردت أحاديث أخرى في بيان اسم الله الأعظم، فيها أدعية أخرى، والتحقيق أنّ اسم الله الأعظم دعاء مؤلّف من عدّة أسماء من أسماء الله، سبحانه، إذا دعا بها الإنسان مع توفّر شروط الدعاء المطلوبة شرعاً استجاب الله له، وليس هو سرّاً من الأسرار يعطيه الله لبعض الأفراد فتنخرق لهم العادات"[٣].

(١) تفسير ابن كثير، المصدر السابق، (٣/ ١٨٨).

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٦٢).

(٣) في صحبة الرسل الكرام، السيد عبد المقصود، دار البشير للثقافة والنشر، ٢٠٠٠م، ص٢٣٠.

١- دعاء يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اخترق الظلمات وبزغ نور الفرج:

دعاء يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اِخترق الظلمات التي تحاصره، ففتحت له أبواب السماء، واستجاب الله تبارك لعبده، فنجّاه من الهموم والكروب والغمّ، وانقشعت الظلمات، وبزغ نور الفرج، وخرج يونس من بطن الحوت بفضل ربّه تعالى.

هذا الدعاء الذي تفتّحت له أبواب السماوات، واستجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، دعاء عظيم، حرِيٌّ بكلّ مؤمن أن يحرص عليه ويفتتح به مسألته ودعاءه، فهو يبدأ بالتوحيد ونبذ الشرك، وإفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة والاستعانة والطاعة، ثمّ تسبيحه عَزَّوَجَلَّ وتنزيهه عن صفات النقص، وإثبات الكمال له تعالى، وينتهي باعتراف العبد بظلمه لنفسه، وتقصيره وأخطائه، ومن فضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العظيم على عباده المؤمنين أنّ الاستجابة به لم تكن خاصّة بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا وعد إلهيّ، وبشارة ربّانيّة لكلّ مؤمن حاصره الهمّ، وضاق صدره حزناً، وأثقلت كاهله الشدائد، بأنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سينجيه ويكشف كربه، ويفرّج همّه كما فعل بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١].

٢- القضاء يُردّ بالدعاء:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يردّ القضاء إلّا الدعاء»[٢]. وسُئل الشيخ الدكتور عثمان الخميس عن هذا الدعاء: (اللهمّ إنّي لا أسألك ردّ القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه)، فكان جوابه: "هذا باطل لا يجوز الدعاء به، بل نسأل الله ردّ القضاء، ونسأل الله العافية"[٣].

---

(١) في قصصهم عبرة، علي حسن العبيدلي، ص١٩٥.

(٢) سنن الترمذي، رقم٢١٣٩.

(٣) السلسلة الصحيحة، الألباني، رقم١٥٤.

٣- هل يسمّى الذكر دعاء؟

مع أنّ دعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، سمّاها النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دعوة أخي ذي النون، ولذلك قال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمّا سأله الصحابة عن شيء يدعون به ربّهم جَلَّ وَعَلَا في عرفة، قال: «**خير ما قلت أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير**»(١).

وإنّما ذِكْرٌ متضمّن للدعاء، كدعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكما قال أيّوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فإنّه ذِكرٌ فيه تضرّع لله جَلَّ وَعَلَا(٢).

❁ ❁ ❁

(١) فبهداهم اقتده، عثمان الخميس، ص٤٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

المبحث الرابع

قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القلم

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

رابعاً: الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ينهى عن تفضيل أحد على يونس** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

سورة القلم من السور المكيّة التي تعنى بأصول العقيدة والإيمان، وقد ابتدأت بالقسم على رِفعة قدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرفه وبراءته ممّا ألصقه به المشركون من اتّهامه -وحاشاه- بالجنون، وبيّنت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية، وتناولت موقف المجرمين من دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أعدّ الله لهم من العذاب والنكال، ثمّ ضربت مثلاً لكفّار مكّة في كفرانهم نعمة الله تعالى العظمى ببعثة خاتم الرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنّة، الحديقة ذات الأشجار والزروع والثمار، حين جحدوا نعمة الله تعالى، ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله تعالى حديقتهم، وجعل قصّتهم عبرة للمعتبرين.

ثمّ قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرّم والضجر بما يلقاه في سبيل دعوة الله تعالى، كما حدث من يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر[1] بدون إذن من ربّه:

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨]:

١- ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾:

(١) مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، ص٣٢٧.

الحكم الرباني شرعاً وقدراً، فالحكم القدريّ يجب أن يُقبل بالصبر والرضا دون سخط أو جزع، والحكم الشرعيّ يقابل بالقبول والتسليم والانقياد التامّ لأمره[١].

- ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ فاصبر يا محمّد لقضاء ربّك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما آتيتهم به من هذا القرآن وهذا الدين، وامضِ لما أمرك به ربّك[٢].

٢- ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾:

فلا تكن يا محمّد كصاحب الحوت، وهو يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الضجر والعجلة والغضب على قومه، وعدم الصبر عليهم، كان عليه أن يوطّن نفسه على مواجهة مشقّات الدعوة[٣].

وإن اللطيف هو أنّ القرآن اعتبرها صحبة ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، وذلك لأنّ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاش في بطن الحوت فترة، وبقي فيها حيّاً بفضل الله.

وأنعم بها من صحبة بين بشر نبيّ، وبين حوت في البحر، كأنّ الحوت كان صاحباً ليونس، ومساعداً له، وحريصاً مشفقاً عليه، ويخاف أن تأكله باقي الحيتان والأسماك، ولذلك جاء إليه منقذاً وابتلعه بهدف حمايته، لا بهدف أكله، وكان هذا بأمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ[٤].

٣- ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾:

النداء هنا الدعاء، وأحسن الدعاء الدعاء الخفيّ، وهل هناك أخفى من هذا الدعاء في ظلمات البحر والليل وبطن الحوت.

---

(١) تفسير السعدي، ص١١٩٥.
(٢) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٢٣٠٣).
(٣) تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (٢٦/ ١٢٣٠٣)، نبيّ الله يونس، العدوي، ص٢٥.
(٤) القصص القرآني، (٤/ ٤٠).

- ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾؛ والكظم: كتم الشيء، وهو مأخوذ من كظم القربة حين تمتلئ بالماء، ثمّ يكظمها أي يربطها، فتراها ممتلئة كأنّها ستنفجر، وهكذا الغضبان تنتفخ عروقه، ويتوارد الدم في وجهه، ويحدث له احتقان، فهو مكظوم ممنوع أن ينفجر(١).

- ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾، وقد قيل: مجهود، وقيل: مكروب، وقيل: مهموم، وقيل: مملوءٌ من الغضب، وقيل: محبوس عن التصرّف(٢).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمكظوم: المحبوس المسدودة عليه، يقال: كظم الباب أغلقه، وكظم النهر إذا سدّه، والمعنى: نادى في حال حبسه في بطن الحوت.

وجيء بهذه الحال جملة اسميّة لدلالتها على الثبات، أي: هو في حبس لا يرجى لمثله، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس"(٣).

وقال الطبريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ يقول: "إذ نادى وهو مهموم، قد أثقله الغمّ وكظمه"(٤).

ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ [القلم: ٤٩]:

تفسير الآية:

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٢٣٠٣).
(٢) لباب التفسير، محمود الكرماني، دار اللباب، ٢٠٢٢م، (٩/ ٤٣٩).
(٣) التحرير والتنوير، (١٢/ ٩١).
(٤) التدبّر والبيان، أبو سهل محمد المغراوي، (٣٥/ ٤٠٩).

١- ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

لولا أنّ الله عَزَّوَجَلَّ تدارك عبده يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ برحمة منه لألقي ونبذ بالعراء، وهي الأرض التي لا زرع فيها ولا نبات.

إن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مكظوماً مكروباً مغموماً من الغمّ الذي أصابه بسبب إلقائه في البحر، وابتلاع الحوت له، ولبثه في بطن الحوت، وابتلاع الحوت له، وهو في حدّ ذاته نعمة من ربّه. فلولا التقام الحوت له لضاع في البحر الواسع، وقد لا يخرج منه ولا يصل إليه أحد، ولكنّ الله تداركه برحمته[١]. قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ قيل: هي النبوّة، وقيل: عبادته السابقة، وقيل: قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقيل: رحمة ربّه بقبول توبته[٢].

٢- ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾:

النبذ: الطرح والترك. والعراء: الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء.

ولكن رحمة الله تداركته بأنّه لم يُنبذ بالعراء وهو مذموم، بل نبذ بالعراء وهو سقيم، والسقيم: المريض، فنُبذ مريضاً ولم يُنبَذ مجرماً مطروداً من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

فنُبذ النبيّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعراء، وكان قدراً مقدوراً، ومع هذا فلا خروج له عمّا قُدر عليه، فلو رضي العبد باختيار الله، أصابه القدر وهو محمود، مشكور،

(١) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٦٣٠٥).
(٢) لباب التفسير، (٩/ ٤٤٠).

ملطوف به فيه، وإلّا لجرى عليه القدر وهو مذموم عنده، غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صحّ تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطف الله ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوّن عليه ما قدّره[١]. فيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تغمّده الله برحمته، فنُبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى[٢].

والآية تبيّن أنّه لا يتمّ شيء من الصالحات، وأمر من المفلحات، والطاعات، والمصلحات إلّا بتوفيقه، وكمال هدايته، ووفور عنايته[٣].

لقد كانت نعمة الله ومنّته على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عظيمة جدّاً، فكانت سبباً في نجاته من الغمّ، والكرب، والذمّ.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]:

١- والاجتباء:

الاصطفاء، فالله اصطفاه واختاره بعد تلك المحن المتتابعة التي تعرّض لها، والاجتباء نعمة أخرى، وتاج نعمة الدنيا أنّ الله اختاره نبيّاً.

وقد مرّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحنة مغاضبته لقومه، وهروبه منهم، ومحنة الفلك وما حدث فيها، ومحنة الإلقاء في البحر، ومحنة ابتلاع الحوت له، ومحنة إلقاء الحوت له على الشطّ بأرض عراء وهو سقيم، فالذي اجتباه[٤] هو:

---

(١) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٦٣٠٥).
(٢) تفسير السعدي، ص١١٩٦.
(٣) تفسير البدليسي، (٥/ ٦٥٨).
(٤) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٦٣٠٥).

٢- ﴿رَبُّهُۥ﴾:

إن الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُذكّرنا بربوبيّته، فالربوبيّة ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من الرحمة، فبربوبيّته يمهل الله العصاة الظالمين لأنفسهم، ويفتح أبواب التوبة لكلّ من يلجأ إليه. فربوبيّته تعالى ليست ربوبيّة جبروت، بل ربوبيّة (الرحمن الرحيم)، والحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اصطفى، واجتبى صاحب الحوت[١].

٣- ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

هم الذين صلحت أعمالهم، وأقوالهم، ونيّاتهم، وأحوالهم[٢]. وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمن كوكبة من أنبياء الله الصالحين، فقال تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وإن الصلاح والنبوّة رحمة من الله بأنبيائه، لذلك قال تعالى في حقّ نبيّ من الأنبياء، وهو لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]، أي: أدخلناه في ركب النبوّة، ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أيّ: من الصالحين للنبوّة[٣].

---

(١) المصدر السابق، (٢٦/ ١٦٣٠٧).

(٢) تفسير السعدي، ص١١٩٦.

(٣) تفسير الشعراوي، (٢٦/ ١٦٣٠٧).

رابعاً: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن تفضيل أحد على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

روى الإمامان البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "بينما يهوديٌّ يعرض سلعته، أعطى بها شيئاً كرهه، فقال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أظهرنا؟ فذهب إليه، فقال: أبا القاسم، إنّ لي ذمّة وعهداً، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لمَ لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى رُئي في وجهه، ثمّ قال: «**لا تُفضّلوا بين أنبياء الله، فإنّه يُنفخُ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، ثمّ يُنفخ فيه أخرى، فأكون أوّل من بُعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلي، ولا أقول: إنّ أحداً أفضل من يونس بن متّى**»"[1].

والشاهد في الحديث: الجملة الأخيرة منه، حيث أخبر أنّه لا يقول إنّ أحداً أفضل من يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال ذلك لأنّ سياق الحادثة يوحي بالتفضيل بين رسُل الله، تفضيلاً قائماً على انتقاص رسُل آخرين، فاليهوديّ يرى أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل العالمين، أي أفضل من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا باطل.

فردّ عليه الأنصاريّ ردّاً يفهم منه بعض انتقاص لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك غضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**لا تُفضّلوا بين أنبياء الله**»، وهم الرسل الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وبعد أن بيّن فضل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ردّ التهمة عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ التي قد تثور عند بعضهم، فنهى عن تفضيل أحد عليه، باعتباره نبيّاً كريماً.

---

(١) البخاري، رقم٣٤١٤، مسلم، رقم٢٣٧٦.

ونهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن انتقاص يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نهياً صريحاً، ورفض أن يعتبر أحد نفسه أفضل من يونس[١].

روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى**»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقولنّ أحد إنّي خير من يونس بن متّى**»[٣].

وروى البخاريّ عن عبيد الله بن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ينبغي لأحد أن يقول: إنّي خير من يونس بن متّى، ونسبه إلى أبيه**»[٤].

وروى البخاريّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قال: أنا أفضل من يونس بن متّى، فقد كذب**»[٥].

في هذه الأحاديث يدافع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في مغادرته لقومه باجتهاده، وينهى أيّ شخص أن يعتبر نفسه أفضل من يونس، وأنّه أوسع منه صدراً، وأكثر منه صبراً، ومعلوم أنّ الأنبياء أفضل من جميع الخلق، وأنّ أصلح صالح المؤمنين لا يكون أفضل عند الله من أيّ نبيّ.

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٨٠).
(٢) البخاري، رقم٣٤١٦.
(٣) البخاري، رقم٣٤١٢.
(٤) البخاري، رقم٣٤١٣.
(٥) البخاري، رقم٣٨٠٥.

وهذا معناه أنّ نبيّ الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن مخطئاً في فعله، وأنّ ما قام منه باجتهاده كان جائزاً، لكنّه خلاف الأَولى، كما قرّرنا من قبل. وإن يونس نبيّ كريم، ورسول مبلّغ عن الله عَزَّوَجَلَّ[١].

١- التفاضل بين الأنبياء:

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا سيّد ولد آدم**»[٢]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالله فضّل بين الرسل، ولكن لا يجوز التفضيل بين الرسل إذا كان على سبيل التنقيص لهم والطعن فيهم، فهذا لا يجوز[٣].

وكما بيّنا في الأحاديث السابقة، وقد توسّع الدكتور سعيد بدهان في كتابه (النبوّات في تفسير القرطبيّ) جمعاً ودراية، وأفرد مطلباً في التفاضل بين الأنبياء، وذكر فيه آراء العلماء بالتفصيل في هذه المسألة، فمن أراد التوسّع فليرجع إليه[٤].

٢- الأدب مع يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

لا يجوز لأحد أن يتّهم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتقصير أو أنّه عصبيّ المزاج، لأنّ ذلك سوء أدب مع نبيّ الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والصحيح أنّه كان غاضباً لله، ولكن لا يقال عصبيّ المزاج[٥]، ولكنّه فعل خلاف الأَولى كما بيّنّا ذلك.

---

(١) القصص القرآنيّ، (٤/ ٨١).

(٢) رواه مسلم، رقم٢٢٧٨.

(٣) فبهداهم اقتده، ص٤٢٢.

(٤) النبوات في تفسير القرطبي، سعيد بدهان، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٣م، ص٨٠-٨٨.

(٥) فبهداهم اقتده، ص٤٢٤.

٣- مختصر أقوال العلماء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إنّي خير من يونس بن متّى، ونسبه إلى أبيه»[١]:

وللعلماء في هذا الحديث أقوال، منها:

• أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا من قبل أن يعلم أنّه أفضل من يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمّا علم ذلك قال: «**أنا سيّد ولد آدم**»، ولم يقل هنا يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه.

• أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا زجراً عن أن يتخيّل أحد من الجاهلين شيئاً من حطّ مرتبة يونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل ما في القرآن العزيز من قصّته، قال العلماء: وما جرى ليونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحطّه من النبوّة مثقال ذرّة[٢].

• هناك قول ثالث، ذكره ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو: أنّ قوله هذا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تواضعاً منه وهو يعلم أنّه سيّد الخلق.

• قيل: إنّ النهي عن التفضيل في النبوّة نفسها، وذلك قد لا يُتصوّر فيها، بل في خصائصها وتوابعها[٣].

• قيل: إنّ هذا نهي عام يشمل الكلّ، فلا ينبغي لمسلم أن يقول أنا خير من يونس بن متّى[٤].

---

(١) رواه البخاري، رقم٣٤١٣.
(٢) شرح مسلم، (١٥/ ١٣٢).
(٣) أصول الاعتقاد في سورة يونس، ص٣٣٨.
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص١٢٩.

إنّ الخطأ الذي ألمّ به يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ما يسمّى في الأصول: خلاف الأَولى لم ينقص من قدره، بل هو رفيع القدر عند ربّ العالمين، فهذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى المسلمين جميعاً على تفضيله على أخيه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1]. وهو نبي الرحمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم أجمعين.

❁ ❁ ❁

(١) التائبون في القرآن الكريم، د. زكي محمد أبو سريع، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٢٤١.

المبحث الخامس

قصّة قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة يونس

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

أوّلاً: قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾:

ثانياً: قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

رابعاً: تفسير الطبري وابن كثير للآية الكريمة:

خامساً: أهمّ صفات وخصائص يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ووفاته:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

سُمّيت السورة بـ (سورة يونس) لذكر قصّته فيها، وما تضمّنته من العبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحلّ بهم العذاب والبلاء، وهذه من الخصائص التي خصّ الله تعالى بها قوم يونس، لصدق إيمانهم وتوبتهم، وأنّ الله لا يظلم الناس، فلو علِم صدق إيمان أيّ عبد من عباده أنجاه في الدنيا والآخرة، لأنّه هو الحكيم العدل[١].

وهذه الآية تتكلّم عن تحضيض الناس على الإيمان، وتكلّمت الآيات السابقة عن عذاب من يكذبون، وأنّ رؤيتهم العذاب تكشف الغطاء عن عيونهم، وفي هذه الآية استثنى قوم يونس، فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب فكانوا الاستثناء الأوحد بين الأقوام والأمم والتاريخ[٢].

أوّلاً: قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾:

١- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾.

- ﴿فَلَوْلَا﴾؛ الفاء: فصيحة تنبّئ عن مقدّر.

- (ولولا): تخفيفيّة وليست امتناعيّة، أي فهلّا كانت قرية آمنت.

- (لولا): حرف يراد لمعانٍ منها التوبيخ، وذلك أنّ أصل معنى لولا التخفيض وهو هنا، مستعمل في لازم التوبيخ، كناية عن التغليظ، لأنّ أهل القرى قد انقضوا،

(١) مقاصد سور القرآن، ص٦٤.

(٢) تفسير سورة يونس، د. أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٠م، ص٣٢٢.

فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليظ والتنديم، وإذا توجّه الكلام الذي فيه (لولا) إلى غير صاحب الفعل الذي دخلت عليه كانت مستعملة في التعجّب ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣].

- ﴿كَانَتْ﴾؛ عبّر بالفعل الماضي التام بمعنى وُجدت[١]، ليفيد السبق، أي: قبل أن ينزل العذاب[٢].

- ﴿قَرْيَةٌ﴾؛ تجمّع سكّاني بقطع النظر عن مصطلح العصر، وهي ما دون المدينة، فالقرآن قد يعبّر عن القرية والمدينة للمكان نفسه، كما في سورة الكهف: ﴿إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧]، ثمّ قال في السياق نفسه: ﴿فَكَانَ لِغُلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، والمكان واحد، ونكّر القرية للتعميم، وقد حاول بعضهم تفسير ذلك بأنّ القرية تطلق على تجمّع ظهر فيه تناقض وانقسام.

- ﴿ءَامَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨]؛ عبّر بالماضي للمعنى الذي ذكرنا، وهو قبل وقوع العذاب[٣].

٢- ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾:

الفاء مرتبطة بما قبلها.

- ﴿فَنَفَعَهَآ﴾؛ أي: أنقذها من العذاب ونجّاها من الهلاك، والنفعُ عام على كلّ.

- ﴿إِيمَٰنُهَآ﴾؛ بتصديقها لرسولها واتّباع أمر ربّها[٤].

---

(١) القصص القرآني، (٤/ ٧١).
(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص٣٢٣.
(٤) المصدر السابق نفسه.

- ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾؛ طهّر نفوسها ومنع أهلها من الظلم، وقرّبهم من ربّهم، والآية تبيّن أثر الإيمان، وهو أنّ النفوس تتطهّر وتقترب إلى الله تعالى، ويكون لها الثواب العظيم والنعيم المقيم، ونفع الإيمان أيضاً يكون في سعة من الوقت وليس كإيمان فرعون(١).

ومنافع الإيمان وبركاته لا حصر لها، فهو المنفعة الكبرى الدائمة في الدنيا وإلى أبد الآباد، وكلّ الأمم السابقة التي هلكوا لم يؤمنوا لـمّا رأوا علامات العذاب(٢).

ثانياً: قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

١- ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾:

أي واستثنى قوم يونس من هذا التخصيص، لأنّهم آمنوا بالفعل ونفعهم إيمانهم(٣).

والاستثناء هنا منقطع، فالمستثنى ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾ ليس من جنس المستثنى منه ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ لأنّ قوم يونس آمنوا، فنفعهم إيمانهم، ورفع العذاب عنهم، أمّا الذين من قبلهم فلم يؤمنوا، ولم يرفع العذاب عنهم(٤).

٢- ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾:

- ﴿لَمَّآ﴾؛ ظرف زمان بمعنى (حين): يتضمّن معنى الشرط؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) القرآن علمني، عبد العظيم بدر الدين، ص١٠٥.

(٣) تفسير سورة يونس، ص٣٢٣

(٤) القصص القرآني، (٤/ ٧٢).

- ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ فعل الشرط[١].

٣- ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾:

جواب الشرط والتقدير: كشفنا عن قوم يونس عذاب الخزي لـمّا آمنوا، حين إيمانهم[٢].

كشفنا عنهم ورفعنا عنهم بسبب إيمانهم العذاب المهين الذي يخزي من يقع عليه ويجعله هزءاً لكلّ الناس ومضرباً للمثل في الهوان والتحقير والضياع والهلاك.

والمراد: تقدير الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه، فعبّر عنه بالكشف تنزيلاً لمقاربة الوقوع[٣].

٤- ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

هذا مقدّم النفع، وأعظم منه نفعهم بنجاتهم في الآخرة[٤]. وفي هذا درس عظيم للأمّة المسلمة أنّه ما نزل بلاء إلّا بذنب وخطيئة، ولا رُفع إلّا بتوبة وإنابة، وأنّ الإيمان بالله تعالى، والتوبة الصادقة، والالتجاء إلى الله، والدعاء الخالص له، والاعتراف بالخطأ من أعظم أسباب رفع غضب الله ومقته وانتقامه عن الأمم، والنجاة من الأهوال، والخروج من الأزمات والكربات، وكشف الضر، ورفع البلوى والنكبات[٥].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الجداول في إعراب القرآن، محمود الصافي، (٦/ ١٩٦-١٩٧).

(٣) تفسير سورة يونس، ص٣٢٣.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) العبر في أحسن القصص وروائع السير، د. ناصر أحمد محمد الغامدي، دار طيبة الخضراء، ٢٠١٥م، ص٢٥١.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

إنّ قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذج لقوم كانوا في تيه وضلال وعصيان الله عَزَّوَجَلَّ، فضلالهم وعصيانهم وظلمهم أوردهم موارد التهلكة، فاستحقّوا به العذاب الأليم، عذاب الخزي في الحياة الدنيا، فلمّا تابوا وآمنوا؛ كشفنا ما بهم من ضرّ[١]، ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: أنعمناهم ومددنا لهم فسحة العمر ليتمتّعوا بهذه الدنيا ومتاعها إلى حين آجالهم فرداً فرداً[٢].

وإذا أُريد بهذه الآية قوم يونس، فإنّها تنطبق على كلّ مسلم في أيّ مكان وزمان، فكلّ إنسان معذّب دخله قليل، وعنده أمراض، وفي بيته شقاق زوجيّ، وبين أولاده من هو عاق، ولديه منغّصات في العمل، ويعاني من متاعب صحيّة، ومتاعب اجتماعيّة مع الجيران مثلاً، ومن أزمات خانقة، فتاب توبة نصوحاً، وأخلص لله إخلاصاً تامّاً، واستقام على أمره، وفعل الصالحات؛ فعندئذ لا بدّ أن يبدّل الله له حياته تبديلاً جذريّاً، فهؤلاء الذين يلتصقون بالدين التصاقاً شديداً، ويتمسّكون به، ويحرصون عليه، لماذا هم كذلك؟

لا لأنّهم متيقّنون أنّ ما جاء به الدين هو الحقّ فحسب، بل لأنّهم رأوا رأي العين النتائج الباهرة لمن يتّبع قواعد الدين[٣].

فعندما يستقيم المؤمن على أمر الله، ويتّبع قواعد الدين يجد البركة والحياة الطيّبة والسكينة والتوفيق الربانيّ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) تفسير النابلسي، (٥/ ٥٦٧).

(٢) تفسير سورة يونس، ص٣٢٣.

(٣) تفسير سورة يونس، المصدر السابق، ص٣٢٣.

فالمؤمن لديه وعد من ربّ العالمين، عندما يحقّق التوحيد ويفرد العبادة لله وينبذ الشرك والكفر بأنواعه، أن يمتّعه إلى حين بصحّته، وسمعه وبصره، وبعقله، وبعمله، وقوم يونس مثلٌ لكلّ قوم ضاقت بهم السبل، وأصابهم ما أصابهم، وعانوا من عذابات شتّى، ومن أزمات مختلفة لو فعلوا كما فعل قوم يونس لكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولمتّعهم إلى حين، فهذه الآية تنطبق على الجماعات كما تنطبق على الأفراد[١].

والمعنى العام للآية الكريمة في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

إنّ الله يذمّ الكفّار السابقين لعدم إيمانهم، وبيّن أنّهم لو آمنوا لرفع العذاب عنهم، لأنّ الإيمان ينفع أصحابه برفع العذاب.

ويُقرّر الله حقيقة تاريخيّة: لم يؤمن أهل قرية بكاملها من قرى الكافرين السابقين، ولو آمنوا بكاملهم لنفعهم، ورفع العذاب عنهم، ولا يستثنى من هؤلاء إلّا قوم يونس، فقد كانوا كفّاراً وهدّدهم الله بالعذاب، ولكنّهم آمنوا بكاملهم جميعاً قبل انتهاء المهلة، وقبل وقوع العذاب، وبذلك نفعهم إيمانهم، فرفع الله العذاب عنهم في الدنيا والآخرة، وجعلهم يعيشون حياتهم في سعادة إلى حين انتهاء أعمارهم، ومجيء آجالهم.

هذا هو الراجح في معنى الآية، وهذا ما ذكره المحقّقون من المفسّرين[٢]

---

(١) تفسير النابلسي، (٥/ ٥٦٧).

(٢) القصص القرآني، (٤/ ٧٣).

رابعاً: تفسير الطبري وابن كثير للآية الكريمة:

١- تفسير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ للآية الكريمة:

معنى الآية: ليست هناك قرية آمنت عند معاينتها العذاب، ونزول سخط الله بها، فنفعها إيمانها، ورفع العذاب عنها، بل يقع العذاب بها، ولا يقبل إيمانها، كما لم ينفع فرعون إيمانه عندما أدركه الغرق، إلّا قوم يونس، فهم مستثنون من ذلك، حيث آمنوا عند نزول العذاب بهم، فنفعهم إيمانهم، ورفع الله العذاب عنهم في الحياة الدنيا، ومتّعهم إلى حين. قال ابن عبّاس: لم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إذا نزل بها بأس الله، إلّا قرية يونس، لـمّا آمنت نفَعها إيمانها.

وقال سعيد بن جبير: لـمّا أرسل الله يونس إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وترك ما هم عليه، دعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أنّ العذاب مُصبحهم، فقالوا: إنّا لم نجرّب عليه كذباً، فانظروا، فإن بات يونس فيكم فليس بشيء، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أنّ العذاب مصبّحكم.

فلمّا أصبحوا تغشّاهم العذاب، ففرّق بين الإنسان وولده، وبين البهيمة وولدها، ثـمّ عجّلوا إلى الله، فقالـوا آمنّا، وصدّقنـا بما جاء به يونس، فكشـف الله تعالى عنهم العذاب[1].

٢- تفسير ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ للآية الكريمة:

أنّه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيّهم ممّن سلف من القرى إلّا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلّا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله

(١) تفسير الطبري تقريب التهذيب، (٤/ ٣٢١-٣٢٢).

واستغاثوا به، وتضرّعوا لديه واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابّهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيّهم، فعندها رَحِمَهُمُ اللَّهُ وكشف عنهم العذاب. واختلف المفسّرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيويّ؟ أو إنّما كشف عنهم الدنيويّ فقط؟

على قولين: أحدهما: إنّما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيّد في هذه الآية.

والقول الثاني: فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

فأطلق عليهم الإيمان، والإيمانُ منقذٌ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر والله أعلم[١].

٣- هل رأى قوم يونس العذاب عياناً؟

اختلف المفسّرون في قوم يونس، هل رأوا العذاب عياناً، أو رأوا دليل العذاب؟

وهناك قولان: القول الأوّل: إنّهم رأوا العذاب عياناً، فلمّا آمنوا كشف عنهم، وعليه الأكثرون[٢]، ومنهم الإمام الطبريّ حيث قال: استثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منهم، أخبر خلقه أنّه نفَعهم إيمانُهم خاصّة من بين سائر الأمم غيرهم[٣]، وإلى هذا القول مال

(١) تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٢٩٧).

(٢) تفسير القرآن تفسير السمعاني، منصور بن محمد السمعاني، دار الوطن للنشر، ٢٠٠٨م، (٢/ ٤٠٦).

(٣) تفسير الطبري، (١١/ ١٧٠).

الشنقيطي في أضواء البيان[١]. وأما القول الثاني: إنّهم رأوا دليل العذاب، ولم يروا عين العذاب[٢].

قال الزجاج: وقوم يونس -والله أعلم- لم يقع بهم العذاب، إنّما رأوا الآية التي تدلّ على عين العذاب، فلـمّا آمنوا كشف عنهم[٣].

وقال الشوكاني: وهذا إشارة إلى قول الزجاج أولى من قول ابن جرير[٤].

وقال القرطبي تعليقاً على قول الزجاج: وهذا قول حسن، فإنّ المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبّس بالعذاب في قصّة فرعون، فإنّه آمن حين رأى ذلك، ويعضد هذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر**». والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبّس بالموت، وأمّا قبل ذلك فلا. والله أعلم[٥].

قال أبو المظفر السمعاني: والقول الأوّل أصح، بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨]؛ والكشف إنّما يكون بعد وقوع العذاب أو قرب العذاب، فإن قال قائل: كيف قَبِلَ إيمانهم عند المعاينة، ولم يقبل إيمان غيرهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فدلّ على أنّ الإيمان المقبول هو الإيمان بالغيب!

وإن الجواب هو أنّ قوم يونس استثنوا من هذا الأصل بنصّ القرآن، والله تعالى يفعل ما يشاء، ولا سؤال عليه فيما يفعل[٦].

---

(١) أضواء البيان، (٣/ ١٦١).
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (١٤/ ٢٥١).
(٣) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج، عالم الكتب، ٢٠٠٧م، (٣/ ٣٤).
(٤) فتح القدير، (٢/ ٦٦٢).
(٥) تفسير القرطبي، (٨/ ٢٤٥).
(٦) تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، (٢/ ٤٠٦).

٤- قلّة المستجيبين لدعوة الأنبياء، وأنّه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيّهم إلّا قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً فقال: «**عُرضت عليّ الأمم، فجعل يمرّ النبيّ معه الرجل، والنبيّ معه الرجلان، والنبيّ ومعه الرهط، والنبيّ وليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق، فرجوتُ أن تكون أمّتي، فقيل هذا موسى وقومه، ثمّ قيل لي: انظر، فرأيتُ سواداً كثيراً سدّ الأفق، فقيل هؤلاء أمّتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرّق الناس ولم يبيّن لهم، فتذاكر أصحاب النبيّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقالوا: أمّا نحن فولدنا في الشرك، ولكنّا آمنّا بالله ورسوله، ولكنّ هؤلاء أبناؤنا فبلغ النبيّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقال: هم الذين لا يتطيّرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربّهم يتوكّلون**»، فقام عكّاشة بن محصن فقال: أَمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال: «**نعم**»، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[(١)].

ووجه مطابقة الحديث للآية: الدلالة على قلّة من آمن بالرسل من أهل القرى، وأنّه لم توجد قرية آمنت بأكملها إلّا قوم يونس، بل ما بعث الله نبيّاً في قرية إلّا كذّبه قومه أو أكثرهم، وهذا المعنى مفهوم من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «**فجعل النبيّ يمرّ ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان، والنبي ومعه الرهط، والنبي وليس معه أحد**»، ولهذا الغرض أورده ابن كثير في تفسيره، واستدلّ به على هذا المعنى[(٢)].

---

(١) البخاري، (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠)، رقم ٥٧٥٢.

(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (١٤/ ٢٥٣).

٥- سنّة الله في الإيمان:

إن اللطيف في التعبير القرآنيّ أنّ الأخبار عن إيمان قوم يونس جميعاً قبل وقوع العذاب بهم، جاء في سياق تقرير سنّة الله في الإيمان والكفر والهدى والضلال، ومتى يُقبل الإيمان وينفع صاحبه، ومتى لا يقبل ولا ينفع.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٦-١٠٠].

إنّ الذين اختاروا الكفر، ولو آمن هؤلاء عند وقوع العذاب الأليم بهم، فلن ينفعهم ذلك الإيمان، ولن يدفع عنهم العذاب.

ولم يحصل أن آمن أهل قرية جميعاً قبل قوم يونس، ولذلك كان يأتيهم العذاب والهلاك، أمّا قوم يونس فقد آمنوا جميعاً قبيل وقوع العذاب، لذلك قبَّل اللهُ إيمانهم.

ولو شاء الله إيمان كلّ من في الأرض لفعل، لأنّه فعّال لما يريد، ولخلَقهم مؤمنين بالفطرة، بدون تكليف أو اختيار، كما خلق الله الملائكة، ولكنّه خلقهم بإرادة واختيار، فيختارون هم الإيمان إن أرادوا، أمّا الذين عاندوا واختاروا الكفر فهم خاسرون، وأنت لا تستطيع إكراههم على الإيمان، وهم عندما يؤمنون يكون إيمانهم بإذن الله وعلمه ومشيئته، والكفّار عندما يكفرون أيضاً يكفرون بإذن الله وعلمه ومشيئته[1]. وهذه السنّة انطبقت على قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) القصص القرآني، (٤/ ٧٥).

إنّ كلمة الله وسنّته قد اقتضت أنّ من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدي، ومن لا يفتح عينيه على النور لا يراه، ومن يعطّل مداركه لا ينتفع بوظيفتها، فيكون نهايته إلى الضلال مهما تكن الآيات والبيّنات، وإذا آمنوا عند وقوع العذاب الأليم فلا ينفعهم الإيمان، لأنّه لم يجئ عن اختيار، ولم تعد هناك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة، وهكذا كان مشهد فرعون، حيث قال عندما أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وعن هذا الموقف الذي تظهر فيه حتميّة سنّة الله العامّة، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة، متى تعرّض لها الإنسان باختياره تفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعّة الأمل في النجاة، وهو أن يعود المكذّبون عن تكذيبهم قبل وقوع العذاب[1].

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]. وهو تخصيص ينسحب على الماضي، فيفيد أنّ مدلوله لم يقع.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾؛ من هذه القرى التي مرّ ذكرها، ولكنّ القرى لم تؤمن، إنّما آمنت منها قلّة، فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان، ذلك فيما عدا قرية واحدة، قرية قوم يونس، ولا يفصّل السياق هنا قصّة يونس وقومه، وإنّما يشير إلى خاتمتها هذه الإشارة لأنّ الخاتمة وحدها هي المقصودة هنا، فلا نزيدها نحن تفصيلاً، وحسبنا أن ندرك أنّ قوم يونس كان عذاب مخزٍ يتهدّدهم، فلمّا آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه، كشف عنهم العذاب وتركوا يتمتّعون بالحياة إلى أجل،

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨٢٠-١٨٢١).

ولو لم يؤمنوا لحَلّ العذابُ بهم، وفاقاً للسنّة المترتّبة آثارها على تصرّفات خلقه، حسبنا أن ندرك أمرين هامّين:

أوّلهما: الإهابة بالمكذّبين أن يتعلّقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلّهم ينجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وهو الغرض المباشر من سياقه القصّة هذا المساق.

وثانيهما: أنّ سنّة الله لم تتعطّل ولم تقف، بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتّعون فترة أخرى.. بل مضت ونفذت؛ لأنّ مقتضى سنّة الله كانت أن يحلّ العذاب بهم لو أصرّوا على تكذيبهم حتّى يجيء العذاب، فلمّا عدلوا قبل مجيئه جرت السنّة بإنجائهم نتيجة هذا العدول، فلا جبريّة إذن في تصرّفات الناس، ولكن الجبريّة في ترتيب آثارها عليها[1].

٦- أسباب نجاة قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- الإيمان بالله وحده لا شريك له، وإفراده بالعبادة.

- الاستجابة لدعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- سرعة الرجوع، والتوبة من الكفر إلى الإيمان، وتدارك رحمة الله الغفور الرحيم.

- تعهّدهم الله برحمته، ومنّته، وفضله، وإحسانه، فإنه برحمته وصلوا إلى التضرّع، والتوبة، والاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ.

- عدم الإصرار على الكفر والعناد، وعلم الله منهم صدق النيّات بخلاف من تقدّمهم من الهالكين.

---

(١) في ظلال القرآن، (٣/ ١٨٢٠-١٨٢١).

- اتّحاد كلمتهم في الإيمان بدعوة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أجمعين رغم كثرتهم.

- عِلمهم لقصص الأقوام التي هلكت قبلهم، وخوفهم من نزول عذاب الله بهم كما حصل للأمم الكافرة من قبلهم، قوم نوح وهود ممّا دفعهم للإيمان[١].

خامساً: أهمّ صفات وخصائص يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته:

إنّ حديث القرآن الكريم عن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يُبيّن لنا أهمّ صفاته، والتي هي:

- أنّه رسول.
- مليم.
- مغاضب.
- مُبتلى.
- مساهِم.
- منبوذ بالعراء.
- سقيم.
- مُلتقم.
- مُناد ربّه.
- ناج من الغمّ.
- مُجتبى.

---

(١) قصص الأنبياء: نوح ويونس عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: دراسة موضوعية مقارنة، محمد إبراهيم العروقي، رسالة لنيل درجة ماجستير، ٢٠١٩م، ص١١١.

- صالح.
- مكظوم.
- مُفصّل.
- مُبشّر.
- منذر.
- حُجّة.
- محمود.
- بصير.
- مُنعَم عليه.
- منصور.
- مؤمن.
- مُستجاب له.

ومن أراد التوسّع فليراجع كتاب يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من وحي القرآن، لمؤلفه الدكتور عقيل حسن عقيل.

ومن أهمّ خصائص يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصفاته: النبوّة والرسالة، فهو من ضمن موكب الأنبياء والمرسلين الذين تميّزوا بصفات خاصّة بهم، كالصدق، والفطانة والتبليغ والعصمة ومكارم الأخلاق، والكمال في الخلقة الظاهرة، والسلامة من الأمراض المنفّرة.

ومن المهم للمسلمين أن يتعرفوا على الحكمة من إرسال الرسل، ووظائفهم وما تميّزوا به من خصائصَ فريدةٍ، وفيما يلي نذكر طرفاً يبيّن ذلك ويجلّيه:

١- تعريف الرسُل وصفاتهم:

الرسول في اللغة: مشتق من الإرسال وهو التوجيه، فالرسول: الذي يُتابع أخبار الذي بعثه، آخذاً من قوله جاءت الإبل رسلاً، أي: متتابعة. وسُمِّي الرسول رسولاً لأنّه ذو رسالة[١]. والرسول: اسمٌ مِن أرسلت، وكذلك الرسالة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

والنبي: فعيل من النبأ مهموزاً، وأصله النبيء ترك الهمزة تخفيفاً، وهو بمعنى مُفْعِل ومُفْعِل فهو مُنْبِئ ومُنْبَأ، مُنْبِئ أي: مُخبرٌ من الله، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وقال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. فالنبي هو الذي يُخبر من الله، وهو الذي يُخبر الناس، أي: يُبلّغهم أمر الله ونهيه ووحيه، وقد يكون لفظ (النبي) من التنبّؤ غير مهموز، وهو الرفعة والمكانة.

أ- تعريف الرسول اصطلاحاً:

الرسول في الاصطلاح: هو رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي وأمره بتبليغه. وهذا التعريف يشمل الأنبياء أيضاً، لأنّ لفظَي النبيّ والرسول إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا[٢].

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، (٨/ ٣٦٧).

(٢) المصدر السابق، (٨/ ٣٦٨).

ب- هل يُنبّأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟:

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبؤون إلّا في سنّ الأربعين لكنّ هذا الغالب، ليس دائماً، لأنّ قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ومعنى (الفتى): صغير السن. وقال تعالى في شأن سيّدنا يحيى بن زكريّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. والحكم هو النبوّة، وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة[1].

جـ- الرسالةُ اصطفاءٌ:

إن الرسالة النبوية هي منحة إلهيّة يختصّ بها الله تعالى من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة، وليست الرسالة درجة علميّة يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنّما هي اصطفاء واختيار للرسّل من بين سائر الناس. وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

د- الرسول يوحى إليه:

إنّ أخصّ ما يُميِّز الرسولَ عن سائر البشر، هو أنّه يوحى إليه من الله عَزَّوَجَلَّ، فالرسول لا يصدر فيما يُبلّغه إلى الناس عن نفسه ورأيه، وإنّما يتلقّى ذلك بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ. قال تعالى مخاطباً رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) المصدر السابق، (٨/ ٣٧٢).

وإن الوحي لغة: الإعلام في سرعة وخفاء. واصطلاحاً: إعلام من الله لنبيّه بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيد الرسول العمل اليقيني القاطع بما أعلمه الله به[١].

هـ- طريق الوحي:

إنّ البشر يحصِّلون علمهم بطريق الحواس أو العقل، أمّا علم الأنبياء تنقسم إلى أنواع ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الأوّل: أن يُلقي الله سبحانه المعنى في قلب النبي مباشرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

ويكون ذلك في اليقظة والمنام وله صور عدّة:

- إلقاء الله معنى يفيضه على قلب رسوله في حالة اليقظة يستيقن معه أنّه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يجد فيه شكّاً، ولا يستطيع له دفعاً ويُسمّى هذا النوع من الوحي (النفث في الرّوع)، والرُّوع: القلب وفي الحديث: «**إنّ روح القدس نفث في رُوعي، أنّه لن تموت نفس حتّى تستوفي رزقها وأجلها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب**»[٢].

وروح القدس: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونفث في رُوعي: أي ألقى الوحي في قلبي.

---

(١) المصدر السابق، (٨/ ٣٧٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد، رقم٣٥٤٧٣، وقال الحافظ في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، كتاب من قبل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٩ه، (٩٢٧)، فيه انقطاع.

– ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأمر الله إيّاه بذبح ولده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أمّ المؤمنين (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا) قالت: "أوّل ما بُدي به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح"(١).

والنوع الثاني: ما يكون مكالمة بين الله تعالى وبين رُسُله، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

والنوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وذلك أشهر أنواع الوحي، ويسمّيه العلماء: الوحي الجليّ ووحي القرآن كلّه من هذا النوع، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

٢- الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرّقان

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب التفسير، (٤٩٥٣).

من وجه ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجمَّاء الغفير، أنّ كلّ رسول نبي وليس كلّ بني رسولاً[١].

وإن الراجح في الفرق بين النبيّ والرسول، أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأُمر بتبليغه، والنبيّ من أُمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل، كحال أنبياء بني إسرائيل الذين كُلِّفوا بتبليغ شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً لم يكن له في التشريع السابق، كما في حال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٣- أهمّ صفات يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

إن الرسل هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحقّ، ودعوتهم إلى الخير. وهداية البشر مهمّة عظيمة، لا يصلح لها إلّا من توفّرت فيهم صفات رفيعة من الكمالات الإنسانيّة، فالرسول رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه، فهو مصطفى، وموحى إليه، ومُبلّغ عن الله ومِن أهمّ صفاتهم المتعلّقة بالرسالة:

أ- الصدق:

الرّسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، ٢٠١٠م، (١٢٥١)، تفسير القرطبي، (١٢/ ٨٠).

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. والرسالة لا يصلح لها كذّاب والرسل مُبلّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. فيستحيل على النبيّ الكذب، وذلك بنقل وحي الله تعالى إلى الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرّب شكّ الناس إلى الوحي الذي ينقله إليهم[1]. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

ب- الفطانة:

هي أن يكون الرسول ذكيّاً عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحُجّة، سديد الرأي، ليس غبيّاً ولا بليداً، لأنّ الرسول يُربّي أمّته، ويجادل خصومه، ويقيم البراهين على صحّة ما جاء به[2].

ج- التبليغ:

لا بد لهذا الصادق الفَطِن أن يُبلّغ ما أوحي إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، فقد قام يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بتبليغ الرسالة حقّ التبليغ.

د- العصمة:

هي حفظ الله تعالى رسله من المعاصي والذنوب، ليكونوا أسوة حسنة للناس، ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والرذائل التي تنافي تكليفهم هداية البشر، وتنفّر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد.

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٣٧٨).

(٢) المصدر السابق، (٨/ ٣٧٩).

معنى العصمة: أنّهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرّماً، ولا يقترفون ما يتنافى مع الخُلُق الكريم، فأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم دائرة بين الواجب والمندوب، فهم معصومون عن الكبائر وعن المنفّرات، ورسل الله (صلوات الله وسلامه عليهم) معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان والغفلة ومعصومون عن الزيادة فيه أو إخفاء بعضه. وهم معصومون أيضاً من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدلّ على خساسية الطبع، صيانة لعلوِّ مكانتهم[١].

هـ- مكارم الأخلاق:

الرسل متّصفون بأرفع الكمالات الإنسانيّة، ويتحلَّون بأسمى الأخلاق الفاضلة: كالكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفّة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فالرسالة لا يصلح لها بخيل، ولا حقود، ولا حسود، وإنّما يصلح لها من اتّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلّى بالأخلاق الفاضلة، وإنّما خصّ الله رسله بهذه الصفات ليصحّ الاقتداء بهم، ولو لم يكونوا متميّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لمّا كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعف ثقة الناس بهم ولضاعت الحكمة من رسالتهم[٢].

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٣٨١-٣٨٢). وللتوسع: العصمة في عقيدة أهل السنّة، منصور بن رشد التميمي، ص١٥؛ دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص٢٥٠؛ العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، ص٤٤-٤٦.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٣٩٠).

و- الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنفّرة:

إنه يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، وكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم ممّا تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفّراً أو مُقعداً عن تبليغ رسالاتهم، كالجدري، والجذام، والبرص، والصرع، والحمّى، فإنّها قد تصيبهم؛ على أن لا تمنعهم من أداء رسالتهم.

٤- الإيمان بالأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

الإيمان بأنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقّق إيمان العبد حتّى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدّق بأنّ الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ومن السنّة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث**»[(١)].

والإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله لا يتمّ حتّى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، ومن قصّهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جَلَّ وَعَلَا أنّ هناك أنبياء

(١) البخاري، رقم (٤٨).

لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. فنؤمن بما سمّى الله في كتابه من رسله، ونؤمن بأنّ الله سوّاهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلّا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إيّاه دائباً على ما جاء به، فإذا اتّبعت ما جاء به أدّيت الفرائض وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات[١].

ومن أطاع رسولاً واحداً، فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحد منهم فقد عصى الجميع، لأنّ كلّ رسول يصدّق الآخر ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، ومن عصاه فقد عصى مَن أُمر بطاعته[٢].

٥- أعداد الرسل:

أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسلاً إلى جميع الشعوب والأمم، ولا يعلم عددهم إلّا الله سبحانه، وقد قصّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وإن الآيات القرآنيّة تشير إلى أنّ الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. أي: متتابعين، ودلّت الآية على أنّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تتابعوا واحداً تلو الآخر، ممّا يدلّ على كثرتهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) مجموع الفتاوى، (٧/ ٣١٣).
(٢) المصدر السابق، (١٩/ ١٨٠).

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٦]، و(وكم): هنا خبريّة، معناها التكثير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة. وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريّا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمّد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد (صلّى الله عليهم أجمعين)، وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بها حجّة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس ويضيّعوا أوقاتهم بها. وقد اختلف في (ذو القرنين، وتُبّع، والخضر) هل هم أنبياء أم لا؟

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبي من الأنبياء، وكذلك تُبّع، والأَولى أن يتوقّف في إثبات النبوّة لهما، لما صحّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه قال: «**ما أدري تُبّع أنبياء أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياء كان أم لا**»[(١)]. وأمّا الخضر فقد رجّح الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه نبي، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف: ٨٢] أي: أنّه قد أوحى إليه فيه[(٢)].

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان، (١/ ٣٦)، وصحّحه على شرط الشيخين.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٤٠٢).

٦- التفاضل بين الأنبياء والرسل:

أخبر القرآن الكريم أنّ الله فضّل بعض الرسل على بعض، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها الله لنبيّه أو لأمّته أو لرسالته.

وإن أفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ أنّه جمع كلّ ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين وسيّدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها، وأمّتُه خير أمّة أُخرجت للناس، ودينُه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين بعدهما[1].

٧- أولو العزم من الرسل:

العزم: القوّة في الدين، والإمامة في الصّبر والتقوى، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والراجح إنّ أولي العزم من الرسل خمسة وهم: نبيّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وقد خصّهم الله بالذكر في كتابه في بعض المواضع:

- كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

- وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي الآيتين دليل على أنّ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم؛ لأنّ الله تعالى ذكر الأنبياء ثمّ عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاصّ على العام يفيد أنّ للخاص زيادة في الفضل.

وخاطب الله تعالى نبيّه محمّداً بقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أمّا سبب تسميتهم بذلك، فلِمَا تميّزوا به من الهمّة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوّة في الحقّ.

قال ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: "ذوو الحزم والصبر"، وقال الضحّاك: "ذوو الجِدِّ والصبر"[(١)].

وقد أثنى الله على أولي العزم من الرسل لما فيهم من جميل الخِلال، وعِظَم الصفات، كما قال تعالى عن نبيّه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]. وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. والخُلّة: هي كمال المحبّة.

---

(١) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، ٢٠٠٧م، (٤/ ٢٠٧).

وقال عن نبيّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وخاطب خاتم رسله محمّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١][1].

٨- حكمة إرسال الرسل عامّة:

من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليُبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلاً مبشّرين ومنذرين.

فالرسل بُعثوا يُهذّبون العباد ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويُحرّرونهم من رِقّ عبوديّة المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود، وبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء.

ولو ترك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهليّة جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا فاقتضت حكمته جَلَّ وَعَلَا ألّا يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٤٠٤).

ومن رحمته جَلَّ وَعَلَا بهم، أن منّ عليهم فبعث رُسُلاً مبشّرين ومنذرين يتلون عليهم آيات ربّهم، ويعلّمونهم ما يصلحهم، ويُرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[1].

أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

ج- رفع الاختلاف وردّ الناس إلى أصول يتّفقون عليها:

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

د- إقامة القسط بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ٢٠١٩م، ص٨١.

وإن هدف الرسل والرسالات السماويّة كلّها: إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين بعضهم البعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حقّ على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد، أو أن تطغى المعاني الرُّوحيّة على المعاني المادّيّة، أو المادّيّة على الرُّوحيّة، إنّه التوازن، إنّه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]. لا طغيان، ولا إخسار، ولا تطفيف، ولا إفراط، ولا تفريط[١].

هـ- الأسوة الحسنة:

إنّ مهمّة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحقّ والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقتدي الناس بهم.

- قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

- وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هذه أهمّ المهمّات التي يقوم بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هداية الناس إلى الحقّ والخير، وتحذيرهم من الباطل والشرّ، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦][٢].

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، (٨/ ٤٠٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

٩- وظائف الرسل:

إنّ للرسل (عليهم الصلاة والسلام) غايات عظمى، ووظائف كبرى، وأهدافاً سامية، أجمل بعضها في النقاط التالية:

- تبليغ الشريعة الربّانيّة إلى الناس.
- تبيين ما أنزل من الدين والإيمان بالله.
- دلالة الأمم على الخير، وتبشيرهم بالثواب المعدّ إلى ما فعلوه وتحذيرهم من الشرّ وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.
- إصلاح الناس بالقدوة الطيّبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.
- إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.
- شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة قد بلغوهم البلاغ المبين.

فهذه بعض وظائف ومهمات المرسلين التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنّهم يُبلّغون عن ربّ العالمين، فسبحان من خصّهم بهذه الرتبة العليّة، ومنحهم هذه الوظيفة السنيّة، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية[1]، ويمكن التوسّع في وظائف الرسل بالرجوع إلى كتابي (نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم).

١٠- أمور تفرّد بها الأنبياء:

أ- الوحي:

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٦م، (١/ ٢٨-٢٩).

وهذا الوحي يقتضي عدّة أمور، يقارفون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيب، يقول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك الإسراء بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العُلا، ورؤيته الملائكة والأنبياء، واطّلاعه على الجنّة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعذَّبين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم عذاب القبر**»[(١)].

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

وممّا اختصّهم الله به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الإسراء: "والنبيّ نائمة عينه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم"[(٢)].

وهذا وإن كان من قول أنس إلّا أنّ مثله لا يُقال من قبل الرأي، كما يقول ابن حجر[(٣)]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة (٤/ ٢٠٠)، رقم (٢٨٦٨).
(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٥٧٠).
(٣) فتح الباري، (٦/ ٦٧٠).
(٤) فتح الباري، (١/ ٦٧٠)، رقم (٣٥٦٩).

جـ- الأنبياء لا يورِّثون:

ممّا اختصّ الله به الأنبياء أنّهم لا يورِّثون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا نُورِّث، ما تركناه صدقة**»(١).

وإن الحكمة من ذلك: أنّ الله تعالى صان الأنبياء عن أن يورِّثوا دَيناً، لئلّا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوّتهم بأنّهم طلبوا الدنيا وخلَّفوها لورَثَتهم(٢).

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوّة والملك، وليس المراد وراثة المالك، لأنّه قد كان له بنون غيره، فما كان ليُخصَّ بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في (الصحاح) من غير وجه، عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا نُورِّثُ، ما تركناه فهو صدقة**».

وفي لفظ: «**إنّا معاشر الأنبياء لا نورِّث**»، فأخبر الصادق المصدوق أنّ الأنبياء لا تورِّث أموالهم عنهم كما يورِّث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصُّون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضّلهم(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، ليس المراد به إرث المال، إنّما إرث العلم والنبوّة، وفي الحديث: «**وإنّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٦٧٣٠).

(٢) منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الأمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، (٤/ ١٩٥).

(٣) البداية والنهاية، (٢/ ١٧).

(٤) العصمة في عقيدة أهل السنة، ص٤٢.

د- تخيير الأنبياء عند الموت:

ممّا تفرّد به الأنبياء أنّهم يُخَيَّرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما من نبيّ يمرض إلّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قُبِض فيه أخذته بحّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، فعلمت أنّه خُيِّر"[١].

هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم:

إن من إكرام الله تعالى لأنبيائه ورسله، أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، وفي الحديث: «**إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[٢].

و- العصمة:

العصمة من الأمور التي خصّ الله تعالى بها أنبياءه ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ دون سائر البشر، وقد عرّفها الراغب الأصفهانيّ في المفردات فقال: حِفظه إيّاهم أوّلاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة والنفسيّة، ومن ثمّ بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثمّ بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق[٣].

---

(١) صحيح البخاري، ك التفسير، رقم (٤٥٨٦).

(٢) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط١، ١٣٨٨ه، رقم (١٠٤٧).

(٣) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م، ص٣٣٧.

وقد أخذ الحافظ بن حجر تعريف الراغب بشيء من التصرّف فقال في الفتح: وعصمة الأنبياء (على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام) حِفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسيّة، والنصرة والثبات في الأمور، وإنزال السكينة[١].

ومن خلال معرفة الرسالة، والنبوّة، وصفات الأنبياء والمرسَلين، والحكمة من إرسالهم، ووظائفهم، وما تفرّدوا به، نتعرّف على صفات يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر، والحكمة من إرساله، والوظائف التي قام بها، وما تفرّد به.

١١- حجّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته:

حجّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ هو جزء من رحلة دعوية مليئة بالدروس والعبر، من أبرزها الصبر في مواجهة معاندة قومه وتحدياتهم.

أ. الرواية الواردة في ذكر حجّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

روى مسلم بن عبد الله بن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّ بوادي الأزرق، فقال: «**أيّ واد هذا**»، قالوا هذا وادي الأزرق، قال: «**كأنّي أنظر إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هابطاً من الثنيّة وله جوار[٢] إلى الله**»، ثمّ أتى على ثنية (هرشى)[٣]، فقال: «**أيّ ثنيّة هذه؟**» قالوا: ثنيّة هرشى، قال: «**كأنّي أنظر إلى يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ناقة حمراء، جعدة[٤]، عليه جبّة صوف، خطام[٥] ناقته خُلبة[٦]، وهو يُلبّي**»[٧].

---

(١) فتح الباري، (١١/ ٥١).

(٢) وله جوار: الجوار رفع الصوت.

(٣) هرشى: جبل قرب الحجفة بين مكة والمدينة.

(٤) ناقة حمراء جعدة: ناقة لونها أحمر وهي سمينة مكتنزة اللحم.

(٥) الخطام: هو الحبل.

(٦) خلبة: الليف: أي حبل من الليف.

(٧) رواه مسلم، رقم ١٦٦، الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، =

لمّا توّجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحجّ، أخبر الصحابة بأنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أتى البيت الحرام حاجّاً ملبّياً، وأنّ يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أتى البيت الحرام أيضاً ملبّياً.

ووصف لنا ناقة يونس، وقد كانت حمراء اللون، مكتنزة باللحم، وأنّ الحبل الذي تُقاد به من ليف، كما وصف لنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّه كان راكباً الناقة، لابساً جبّة من صوف، وهو يلبّي قائلاً: لبيك اللهم لبيك.

ولا غرابة في قدوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيت الله الحرام حاجّاً ملبّياً، فقد كان بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعلوم أنّ إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هما اللذين بنيا البيت الحرام، وأنّ إبراهيم لـمّا أتمّ البناء أذّن في الناس بالحجّ، ودعاهم إلى المجيء حاجّين البيت الحرام، وأشار القرآن إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وإبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هما أوّل من أدّى مناسك الحجّ. وبما أنّ موسى ويونس نبيّان كريمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فلا غرابة أن يأتي كلّ منهما للحجّ، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي من الأرض المقدّسة، وبعده بقرون يأتي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من نينوى في شمال العراق[1].

ب- وفاة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لا يوجد دليل من القرآن الكريم ولا في السنّة الصحيحة على المدة التي عاش فيها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا، وأين دفن. وقد تعدّدت الآراء عند المؤرّخين والباحثين

= إبراهيم محمد العلي، دار القلم، ٢٠٠٧م، ١٢٤.

(١) القصص القرآني، (٤/ ٧٩).

كالعادة في مثل هذه الأمور، فهناك من يقول عندما خرج من بطن الحوت كان عمره ثلاثاً وستّين سنة، وعاش في قومه بعدما آمنوا ما شاء الله أن يعيش[١].

وأمّا موطن وفاته، فتذكر المصادر التاريخيّة مصادر كثيرة منها: حلحول[٢]، والكوفة[٣]، وطرسوس[٤]، وغير ذلك من الأماكن. وهناك من رجّح أنّه توفّي ودفن في قرية نينوى، ويرى الباحث عبد المحسن قاسم الحاج في كتابه: (يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته في ظل القرآن الكريم والسنة)، وبعد أن ذكر أقوال المؤرّخين في مواطن وفاته، ذكر أنّه دفن في نينوى بالعراق، وقال: إنّ نبيّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ نسبه إلى مدينة (نينوى)، وأنّه بُعث إلى أهلها. واستدلّ ببعض أقول المؤرّخين فيما ذهب إليه[٥]، والله أعلم.

ويقول الدكتور أحمد الكبيسي: ولا يزال قبر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من أعظم معالم الموصل، حيث يراه القادم إليها من كلّ مكان، لأنّه مسجد يتربّع مكاناً عظيماً، ويشكّل معلماً من معالم الحضارة القديمة والتاريخ الإسلاميّ[٦].

وقال محمّد أمين بن خير الله العمري: نبيّ الله يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ مدفون في نينوى في بيعة في بطن الجبل الذي في القرية. ومعلوم مكانه من قبل الإسلام، وقد بنى بعض الملوك على متن البيعة مسجداً جامعاً ووضع له عَلَيْهِ السَّلَامُ قبّة على قبّته الأصليّة، ووضع له صندوقاً وقبراً على موازاة ذلك القبر القديم[٧].

---

(١) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، ص٤٠.
(٢) حلحول: قرية من قرى فلسطين.
(٣) الكوفة: البلدة المعروفة بالعراق.
(٤) طرسوس: مدينة معروفة.
(٥) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، ص٤٢.
(٦) من أنباء القرى، ص٥٨٤.
(٧) منهل الأولياء ومشرب الأولياء، محمد أمين العمري، ص١٦.

ويقول الأستاذ سعيد الديوه جي: ويظهر لنا أنّ جلال الدين إبراهيم الختني[١]، عندما كان يقوم بتجديد المشهد، فإنّه عثر على قبر النبيّ يونس فأظهره، وبني فوقه قبّة ووضع عليه صندوقاً، ومن ذلك الوقت صار يُعرف المشهد بجامع النبيّ يونس، نجد هذا في حجّة الوقف التي كتبها جلال الدين إبراهيم الختني بعد أن انتهى من عمارة المشهد، وجعله جامعاً تُقام به الجُمَع، ويسمى جامع النبيّ يونس، وأوقف له ما يكفيه[٢].

وهذه أقوال المؤرّخين، ولا دليل عليها من الكتاب والسنّة الصحيحة. والأهمّ في سيرته ما جاء في الذكر الحكيم، وما بيّنه رسولنا الكريم في حقّه، واستلهام الدروس والعبر والفوائد من قصّته الثريّة، وتحقيق توحيد الله وإفراده بالعبادة والسير على منهج الله في أرض الله وفق مراده الذي جاء في القرآن الكريم وبيّنه الصادق الأمين، وحسن التعامل مع الله في الدعاء، والإكثار من التسبيح الوارد في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

(١) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، ص٤٢.

(٢) يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته، المصدر السابق، ص٤٢، إبراهيم التنمي: هو وزير تيمور لنك له حجة الوقوف، كتبها سنة ٧٦٧.

الخلاصة

إن قصة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تُمثّل واحدة من أعظم القصص القرآنية التي تزخر بالدروس والعِبر. فقد حَمل هذا النبي الكريم رسالة الله إلى قومه، داعيًا إياهم إلى الإيمان والتوحيد، وعاش محطات مختلفة من الدعوة، والصبر، والابتلاء، حتى وصل إلى التمكين الإلهي الذي أخرجه من الظلمات إلى النور. ومن خلال تأمل هذه القصة كما وردت في القرآن الكريم وتفاسير العلماء، يمكننا استخلاص بعض النتائج التي لا تقتصر على الجانب الإيماني فحسب، بل تمتد لتشمل الجوانب الدعوية والأخلاقية والإنسانية:

١. النبي هو الشخص الذي يُعطى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلم والإخبار بما يتعلق بأوامر الله ونواهيه ووحيه. فهو المكلف بتبليغ الناس وتعليمهم ما أنزله الله من تشريعات وهدي، وذلك بصفته وسيطًا بين الله والعباد. وقد يكون لفظ "النبي" مشتقًا من الجذر "نَبَأَ" بمعنى الإخبار، وهو غير مهموز، مما يدل على الرفعة والمكانة العالية التي يتمتع بها النبي في الدين وفي المجتمع. وبالتالي، يُعتبر النبي هو الشخص الذي يُعنى بنقل رسائل الله، وتوجيهات الدين إلى الناس، وهو يتمتع بمقام رفيع كونه يحمل المسؤولية الكبرى في هداية البشرية.

٢. يُعد الرسول شخصًا مختارًا من الله ليحمل رسالة إلهية فريدة، تتضمن أوامر الله ونواهيه، ويجب عليه أن يُبلِّغها بأمانة تامة. مكانته الخاصة تأتي من كونه الواسطة بين الله تعالى وعباده، ويتحمل مسؤولية عظيمة في توجيه الأمة.

٣. الرسالة ليست مكانة يمكن الوصول إليها بالعلم أو الاجتهاد، بل هي اصطفاء من الله تعالى. ويختار الله من عباده من شاء ليكون حاملًا لهذا التكليف العظيم. لا يمكن للإنسان أن يسعى إليها بقدراته الذاتية، بل هي منحة إلهية.

٤. الوحي هو آلية الاتصال بين الله ورسوله، يتم من خلالها إيصال الرسائل الإلهية عبر طرق غير عادية. وهذه الوسيلة الخاصة تتمثل في إخبارات روحانية ومعرفية توجّه الرسول في رسالته، مؤكدة أنّ الوحي هو مصدر قوتهم في إبلاغ دعوة الحق.

٥. إن من أبرز صفات الرسول أنه ذكي، عميق الفهم، قوي الحجة، وحاضر البديهة. ولا يمكن لشخص عادي أن يتولى هذه المهمة العظيمة من دون أن يمتلك قدرة فكرية واستيعابية عالية، فكل كلمة من كلمات الرسول تحمل الحكمة والصدق في شرح الحقائق وتحقيق البراهين.

٦. لقد قام نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأداء مهمته على أكمل وجه، فلم يتوانَ لحظة في تبليغ ما أوحي إليه من أحكام وشرائع، بل بلّغ الرسالة بكل صدق وإخلاص، فكان هو المثال على الإلتزام التام بالتبليغ الرباني، وهو درسٌ عظيم في الوفاء لله ولرسالته.

٧. الإيمان بكل الأنبياء والرسل هو أساس الإيمان في الإسلام، فمؤمن لا يُصدق جميع الأنبياء هو غير مؤمن، ولا يتحقق إيمان العبد إلا عندما يؤمن بما جاء به الأنبياء من هداية، حيث إنهم بلغوا الرسالة على أكمل وجه، وقدموا للبشرية ما فيه مصلحتها.

٨. العصمة هي منحة خاصة أنعم الله بها على أنبيائه ورسله، وهي حماية لهم من الزلل أو الخطأ في نقل الوحي. وتكمن العصمة في تربيته لهم بأعلى درجات الفضيلة، وإمدادهم بمعونة إلهية تجعلهم قادرين على حمل مسؤولياتهم العظيمة في ظل صعوبات الحياة ودروب الدعوة.

٩. كان نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من بني إسرائيل، حيث اختلف المؤرخون في تحديد نسبه، ولكنهم اتفقوا على أنه من أسرة نبيلة مرتبطة بقصة بني إسرائيل.

١٠. يعد يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من نسل بنيامين أو يهوذا بن يعقوب، مما يربطه بتاريخ طويل من النبوة والكرامة الإلهية التي تسلسل فيها الأنبياء من أسرة واحدة. يصعب الجزم بمكان ولادة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نظرًا لندرة الأدلة القطعية، إلا أن بعض الروايات التاريخية تشير إلى أنه ولد في إحدى قرى فلسطين. وغير أن الثابت بالأدلة الشرعية والتاريخية أنه بُعث في مدينة نينوى بالعراق، تلك المدينة التي كانت تجمع بين الآشوريين واليهود، وشهدت دعوته التي حملت معاني الهداية والإنذار.

١١. نشأ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تحت عناية الله ورعايته، فاختاره سبحانه ليكون نبيًا يبلّغ رسالته إلى الناس، وأعدّه للقيام بمهمّته العظيمة في الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه. واشتهر بين قومه بالصدق والأمانة، وتميّز بالذكاء والفطنة، وامتلك أخلاقًا سامية جعلته جديرًا بحمل هذه الرسالة الإلهية.

١٢. جاء يونس إلى قومه في نينوى يحمل حجة واضحة مليئة بالحكمة والبيان، يدعوهم إلى ترك الكفر والشرك، ويحذّرهم من عواقب عبادة الأوثان. استند في دعوته إلى دلائل العقل والفطرة، وخاطب عقولهم وقلوبهم، داعيًا إياهم للتفكّر في الخلق والتأمّل في الكون الذي يدلّ على وجود خالق مدبّر واحد يستحقّ العبادة.

١٣. كانت دعوة يونس امتدادًا للرسالات السماوية التي حملها الأنبياء والمرسلون قبله، إذ اتفقت في أصول الإيمان بالله، وتوحيده، وتنزيهه عن الشرك. وظل يونس يذكّر قومه بأن رسالته رحمة من الله لهم، وأنها السبيل إلى الهداية والنجاة في الدنيا والآخرة. وحاول غرس عقيدة الإيمان الصافية في قلوبهم، تلك العقيدة التي تطهّر النفوس من دنس الوثنية والشرك.

١٤. ورغم وضوح الحجة وصدق الدعوة، رفض قوم يونس الاستجابة لدعوته، وأظهروا له العناد والمكابرة، بل اشتدوا عليه بالعداوة والسخرية. ورغم أنه جادلهم بالحكمة والحق، إلا أنهم استمروا في ضلالهم، وظلوا يحاربونه ويحرّضون عليه. ومع تصاعد عنادهم واستمرارهم في الكفر، لجأ يونس إلى تحذيرهم من سوء العاقبة والعذاب الإلهي، لكنهم قابلوا ذلك بمزيد من الإصرار والرفض.

١٥. ظل يونس في دعوته صابرًا محتسبًا ما شاء الله له أن يبقى، محاولًا إصلاح قومه بكل وسيلة ممكنة، لكنهم ظلوا على عنادهم. وعندما بلغ الأمر حدًّا لا يُحتمل، غضب منهم وغادرهم بعد أن أنذرهم بعذاب من الله ينتظرهم إذا استمروا في كفرهم. وخرج يونس مغاضبًا، متوعّدًا قومه بعذاب يحيق بهم، كما حلّ بالأقوام الذين سبق أن كذّبوا رسالات الله

١٦. لمّا خرج يونس (صلوات الله وسلامه عليه) من بين أظهرهم قذف الله جَلَّ وَعَلَا في قلوبهم التوبة والإنابة والخوف، وذلك ممّا شاهدوا مقدّمات هذا العذاب الذي توعّدهم به يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعند ذلك تابوا إلى الله جَلَّ وَعَلَا وأنابوا ولجؤوا إليه.

١٧. إنّ الأحبار الذين كتبوا (سفر يونان) يهود عنصريّون ومجرمون كفّار كاذبون، حيث زعموا أنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان إسرائيليّاً عبرانيّاً، وأنّ الله بعثه نبيّاً إلى نينوى عاصمة الآشوريّين.

١٨. ليس في القرآن أيّ تحديد لزمن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك لا حجّة لمن أراد أن يستنكر تاريخيّة هذا النبيّ، لاستبعاده إيمان أهل نينوى في القرن الثامن قبل الميلاد بنبيّ التوحيد.

١٩. ما دام يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من المرسلين منا قال ربّ العالمين فإنّه من المعصومين، فيما يُخبره عن الله وفي تبليغ رسالاته باتّفاق الأمّة، ولهذا وجب الإيمان بكلّ ما أوتوه بخلاف غير الأنبياء، فإنّهم ليسوا معصومين كما عُصم الأنبياء، ولو كانوا أولياء الله.

٢٠. لقد ظنّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّ الله لن يضيق عليه بإبقائه عند قومه، بعد أن انتهت مهمّته فيهم، وسيوجّهه إلى أناس آخرين، ولذلك غادرهم سرّاً، وخرج من بينهم وهم لا يشعرون به وتباعد عنهم.

٢١. خرج يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي ظنّه واجتهاده أنّه لم يبق فائدة من بقائه في قومه، إنّهم لم يؤمنوا به، وإنّ العذاب آتيهم بعد ثلاثة أيّام، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لهم، فهل يبقى جالساً بينهم بدون دعوة؟ فخرج من بينهم سرّاً، دون أن يعلموا به، وتوجّه نحو شاطئ البحر وكلّه أمل ورجاء أن يأتيه التوجيه من الله في الطريق.

٢٢. عندما ركب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ مع جمع من الناس في السفينة، ثقلت بهم بسبب كثرة الركاب أو المتاع. وكان الحل المتبع آنذاك هو اللجوء إلى القرعة لتحديد من يُلقى في البحر لتخفيف الحمل. رغم أن القرعة كانت وسيلة معروفة لفصل النزاع أو تحقيق العدل بين الناس، أصابت يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، لتظهر إرادة الله وحكمته في تدبير الأمور.

٢٣. القرعة كانت نظاماً تاريخياً له حضور في حياة الإنسان منذ القدم، واستُخدمت في المواقف الصعبة وفي تحديد الحقوق، سواء بين الأفراد أو المجتمعات، كما بقيت تُستخدم بطرق متنوّعة حتى في القوانين والأنظمة المعاصرة، بما في ذلك الألعاب الرياضية وغيرها من الممارسات. وقد ناقش الفقهاء هذه الوسيلة، فوضعوا شروطاً محددة لاستخدامها، مبينين الحالات التي تجوز فيها والتي لا تصح.

٢٤. حين أُلقي يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في البحر، بدأت محنته العظيمة، التي كانت بقدر من الله الحكيم. فلم يكن الهدف إهلاكه، بل ابتلاؤه لرفع منزلته وتعليمه درساً في الصبر والتوكل. وجهّز الله له سبيلاً للنجاة، إذ أمر الحوت أن يبتلعه دون أن يؤذيه، لتكون تلك اللحظة بداية اختبار شديد مرّ خلاله يونس بظلمات متعدّدة، لم تقتصر على الظلام المادي في بطن الحوت، بل شملت ظلمات نفسية أثقلت روحه، كالهم والغم والكرب.

كانت تلك الظلمات تمثل تحدياً نفسياً وروحياً ليونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث تضاعفت مشاعره من ضيق وحزن ليشعر كأنه غارق في بحر من الظلمات. لكن وسط كل ذلك، لم يفقد الأمل بالله. ونادى ربه في خشوع وتضرّع قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ بهذا الدعاء الخالد، الذي يعكس الإقرار بالوحدانية والتنزيه لله والاعتراف بالخطأ، فتح يونس باب النجاة. وقد أصبح هذا الدعاء مفتاحاً لكل مؤمن صادق يعاني من كرب أو محنة، فهو يعكس أسمى درجات الإيمان والثقة برحمة الله.

٢٥. لم يكن خروج يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من بطن الحوت إلا إكراماً من الله له بعد أن اجتاز امتحانه بالصبر والدعاء. وقد كان خروجه درساً لكل إنسان ارتكب خطأ،

فالتضرع إلى الله والاعتراف بالذنب مع الانطراح بين يديه بصدق وإخلاص هما الطريق الأكيد لتفريج الكرب ورفع البلاء.

٢٦. إنّ ما حدث مع يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن ذنباً بمعنى المعصية، بل كان مخالفة لما هو أولى، وهو ترك قومه دون إذن من الله. وهذا الموقف يُعطينا إشارة عظيمة عن حرص الأنبياء على رضا الله، وكيف أن أقل خطأ بالنسبة لهم يمثل نقطة ضعف تدفعهم للتوبة والعودة إلى الله بكل خشوع.

٢٧. نلمس من خلال قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّ صاحب النفس اللوّامة يتّسم بشفافية الروح، ورقّة الفؤاد، فيلوم نفسه على ما أخطأ فيه، ويديم محاسبة نفسه في كلّ أفعاله، فيسرع الإنابة إلى ربّه كما أناب يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٢٨. إنّ استجابة الله لدعاء عباده سنّة ثابتة، وعبادة عظيمة قام بها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ غاية القيام مبيّناً فقره المطلق لله عَزَّوَجَلَّ في كلّ أحواله وشأنه.

٢٩. دعاء يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اخترق الظلمات التي تحاصره، ففتحت له أبواب السماء، واستجاب الله تبارك لعبده، فنجّاه من الهموم والكروب والغمّ، وانقشعت الظلمات، وبزغ نور الفرج، وخرج يونس من بطن الحوت بفضل ربّه تعالى.

من فضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العظيم على عباده المؤمنين أنّ الاستجابة بدعاء يونس لم تكن خاصّة بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

٣٠. . وهذا وعدٌ إلهيٌّ وبشارةٌ ربّانية لكلّ مؤمنٍ حاصره الهمّ، وضاق صدره حزنًا، وأثقلت كاهله الشدائد، بأنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سينجيه، ويكشف كربه، ويُفرّج همَّه كما فعل بيونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٣١. كان يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مكظومًا، مكروبًا، مغموماً بسبب ما أصابه من إلقائه في البحر، وابتلاع الحوت له، ولبثه في بطن الحوت. وكان ابتلاع الحوت له في حدّ ذاته نعمةً من ربّه، فلولا أن الحوت التقمَه، لضاع في البحر الواسع، ولربما لم يخرج منه ولم يصل إليه أحد، ولكنّ الله تداركه برحمته.

٣٢. لا يجوز لأحد أن يتّهم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتقصير أو بأنّ لديه عصبية مزاجية، لأنّ ذلك يُعدّ سوء أدب مع نبيّ الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. والصواب أن يُقال: إنّه كان غاضبًا لله، لكن لا يُقال عنه إنّه عصبيُّ المزاج.

٣٣. إنّ الخطأ الذي وقع فيه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والذي يُسمّى في الأصول بـ "خلاف الأولى"، لم يُنقص من قدره شيئًا، بل يظلّ رفيع المنزلة عند ربّ العالمين. وقد نهى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين عن تفضيل نفسه على أخيه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مؤكّدًا بذلك مكانة يونس الرفيعة، وحرمة التنقص من قدر الأنبياء.

٣٤. أمَر اللهُ الحوت أن يلتقم يونس التِقامًا، وأن يبتلعه ابتلاعًا، فنفّذ الحوتُ أمر الله. ولذلك لم يُطبِق عليه فكّيه، ولم يغرِز أنيابه فيه، ولم يمضغه بفمه، بل كان فمه مجرّد طريقٍ يمرّ به يونس ليستقرّ في بطن الحوت.

٣٥. إنّ الله فعّالٌ لما يُريد، وهو على كلّ شيءٍ قدير. فقد أمَر اللهُ الحوتَ أن يتوجّه نحو السفينة ففعل، وأمره أن يفتح فمه استقبالًا ليونس ففعل، وأمره ألا يمضغ يونس ففعل، وأمر معدته ألا تهضم يونس ففعلت. والله هو الذي قدّر ليونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعيش حيًّا في بطن الحوت. وإنّ الأمر كلّه معجزات وخوارق، يعجز عنها البشر وجميع المخلوقات، ولكنّها مفهومة؛ لأنّها من فعل الله.

٣٦. لقد كان ليونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رصيدٌ كبير من ذكر الله وتسبيحه، وهذا الرصيد كان سببًا في أن يرَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويُنقذه من هذه المحنة. فقد عرف الله في الرخاء، فعرفه الله في الشدّة، وذِكر الله في الرخاء، فنفعه ذلك عند الشدّة، وفرّج الله عنه بسبب هذا الذكر.

٣٧. كان يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المُسبّحين في أوقات الرخاء قبل أن يلتقمه الحوت، فنفعه عمله السابق في نجاته من بطن الحوت. ولا يُستبعد أيضًا أن يكون قد أكثر من التسبيح في بطن الحوت، وكان هذا كذلك من أسباب نجاته.

٣٨. بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ تسبيح يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان سببًا في نجاته من بطن الحوت، حيث قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

٣٩. اقتضت حكمة الله تعالى أنَّ المكان الذي ناسب يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن أُخرج من بطن الحوت هو العراء، إذ توافَقَ مع حالته الصحية الضعيفة وما أصابه من السقم أثناء لبثه في بطن الحوت.

٤٠. بأمر الله تعالى، لفظ الحوت يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وألقاه على الشاطئ، منهيًا محنته في البحر. ورغم نجاته من الخطر، واجه يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ محنة جديدة، تولّى الله رعايته فيها ودبّر له أسباب التعافي والسلامة.

٤١. أنبت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شجرة من القرع لتظلل يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتحميه من حر الشمس، إذ تتميّز شجرة القرع بأوراقها العريضة التي تمنح ظلاً وافرًا، وبخاصيتها في طرد الذباب الذي لا يحتمل لحم يونس المرهق. وكان إنبات هذه الشجرة معجزة إلهية لتوفر الحماية والعناية الفائقة له.

٤٢. الحوت الذي التقم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان جنديًا من جنود الله، وكذلك شجرة القرع. سُخِّر كلاهما بأمر الله لحماية نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

٤٣. ظلّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تحت شجرة القرع، مستمتعًا بحمايتها من حر الشمس وأذى الذباب، حتى استعاد عافيته وقوّته تدريجيًا. وبفضل العناية الإلهية المستمرة، تعافى يونس تمامًا بعد أن كان ضعيفًا وسقيماً، وخرج من محنته سالمًا معافى.

٤٤. بعد أن شفاه الله عَزَّوَجَلَّ وأعاد إليه عافيته، لم تنتهِ قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقد أعاده الله إلى قومه الذين كان قد غادرهم، ووجدهم قد آمنوا بدعوته وتابوا إلى الله، فاستأنف مهمته النبيلة في تعليمهم الشريعة، ونقل الرسالة الإلهية إليهم.

٤٥. وصف الله قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنهم كانوا مائة ألف أو يزيدون. وعندما عاد إليهم، وجدهم قد تغيروا بفضل إيمانهم، فاستمر في دعوته بينهم، يُرشدهم إلى طريق الله ويُعلمهم معاني الآيات الإلهية. وبعودته إليهم، افتُتح فصل جديد في حياته، حمل نور الهداية والإصلاح.

٤٦. حين آمن قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتابوا إلى الله، رفع الله عنهم العذاب الذي كان على وشك أن ينزل بهم. ومدَّهم الله بحياة طيبة وسعيدة، إلى أن جاء أجلهم المقدّر.

٤٧. أدرك قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ خطأهم، فعادوا إلى الله نادمين مستغفرين. فقبل الله توبتهم، وغفر ذنوبهم، وكشف عنهم العذاب، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة. وخلّد الله هذه القصة في كتابه العزيز لتكون عبرةً وعظةً للناس.

٤٨. كانت قصة قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثالًا لقوم أوصلهم ضلالهم وظلمهم إلى حافة الهلاك، فاستحقوا العذاب الأليم. ولكن عندما تابوا وآمنوا، رفع الله عنهم البلاء وأنعم عليهم بحياة جديدة.

٤٩. إنّ قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يمثّلون قدوة لكل أمة تواجه الأزمات وتعيش في أجواء الضيق. فمن سلك سبيلهم في التوبة والرجوع إلى الله، كشف الله عنه الضر، ومتّعهم بحياة طيبة إلى حين.

٥٠. لم توجد قرية آمنت كاملةً برسالة نبيها من الأمم السابقة إلا قوم نينوى، وهم قوم نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقد جاء إيمانهم نتيجة خوفهم من العذاب الموعود بعدما ظهرت علاماته وشاهدوا بوادر وقوعه. وحينذاك، كان نبيهم قد خرج من بين أظهرهم، فلجأوا إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع، واستغاثوا به خاشعين مستسلمين، فأحضروا أطفالهم ومواشيهم ودوابهم ورفعوا أكف الضراعة، يسألون الله أن يرفع عنهم العذاب. وبفضل هذه التوبة الصادقة، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وكشف عنهم البلاء.

٥١. لم يُسجل التاريخ إيمان قوم بأكملهم قبل نزول العذاب سوى قوم يونس، لذا كانوا استثناءً عن سنن الله في الأمم السابقة، حيث كان الهلاك نصيب الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم. وأما قوم يونس، فبسبب إيمانهم الجماعي قبل حلول العذاب، قُبل إيمانهم ورفع عنهم ما أُوعدوا به من عذاب.

٥٢. سنن الله في خلقه تقتضي أن من لم يسلك سبيل الهدى لا يهتدي، ومن أغلق عينيه عن نور الحق لا يراه، ومن عطل مداركه اختار طريق الضلال، مهما كانت الآيات والبينات أمامه. وإذا أتى الإيمان بعد معاينة العذاب، فإنه لا يُقبل؛ لأنه يكون نابعاً من الاضطرار لا من الاختيار، ولا تتوافر فرصة لترجمة مدلول الإيمان إلى عمل صالح.

٥٣. تميّز نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بخصائص النبوة والرسالة، فهو أحد أفراد موكب الأنبياء والمرسلين الذين اختصهم الله بصفات عظيمة، كالصدق، والفطانة، وإبلاغ الرسالة، والعصمة، ومكارم الأخلاق، إلى جانب الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من العيوب والأمراض المنفّرة.

٥٤. أخبرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء أدائه مناسك الحج أن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سبق وقدم إلى البيت الحرام، وأدّى مناسك الحج مُلبّياً نداء التوحيد والطاعة لله. كما أخبر أن نبي الله يونس بن متّى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أدّى مناسك الحج أيضاً، مما يدلّ على مكانة الحج في شريعة الأنبياء ويدلّ على قدسية البيت الحرام منذ القدم.

٥٥. وصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقة نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنها حمراء اللون، وديعة ومكتنزة باللحم، وأنها كانت تُقاد بحبل مصنوع من ليف. ووصف يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أثناء الحج بأنه كان يركب ناقته مرتدياً جبّة صوفية، ويردد التلبية قائلاً: "لبيك اللهم لبيك". ويعكس هذا التوصيف تواضع يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وبساطة حياته، إلى جانب إقباله بإخلاص على شعائر الحج، مما يُبرز مكانة هذه العبادة وأهميتها في حياة الأنبياء.

٥٦. لا يوجد دليل قاطع في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة يُحدد عُمر نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أو مكان دفنه. لكن وردت أقوال لبعض المؤرخين والباحثين تشير إلى أن عمره كان ثلاثاً وستين سنة عندما خرج من بطن الحوت، وأنه عاش بعد إيمان قومه ما شاء الله له أن يعيش.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، ٢٠٠٧م.

٣. أحكام القرآن، ابن العربي المالكي، دار الفكر العربي، ٢٠١٩م.

٤. الإخلاص حقيقته ونواقضه، عبد الله بن عيسى الأحمدي، رسالة لنيل درجة الماجستير في تخصص العقيدة، ٢٠١٧م.

٥. الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، د. عبد الله سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.

٦. أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط١، ٢٠١٦م.

٧. أصول الاعتقاد في سورة يونس، قذلة محمد القحطاني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، كلية أصول الدين، الرياض، ٢٠١٦م.

٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، مجمع الفقه الإسلامي، بجدة، ٢٠١٣م.

٩. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمان، ٢٠٠٧م.

١٠. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١١٨٩م.

١١. الأم، الإمام محمد بن إدريس الشافعي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م.

١٢. الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، ٢٠١٣م.

١٣. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ٢٠٠٦م.

١٤. الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، د. علي العريبي، دار ابن حزم، ٢٠١٤م.

١٥. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عبد الرحمن بن محمد عليمي، المطبعة الحيدرية، ٢٠١٦م.

١٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي الخير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٧. الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ٩٠٥١م.

١٨. البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٩. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٩٠م.

٢٠. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار عالم الفوائد، ٢٠١٣م.

٢١. بلادنا فلسطين، مراد الدباغ، دار الهدى، كفرقرع، ١٩٩١م.

٢٢. بنية المكان في القصة القرآنية، عبد الله خضر، دار جرير للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.

٢٣. تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، بيت الأفكار، ٢٠٠٩م.

٢٤. تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين.

٢٥. التائبون في القرآن الكريم، د. زكي محمد أبو سريع، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

٢٦. التبصرة، أبو الفرج بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٥٢٠م.

٢٧. التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، ٨٣١٩م.

٢٨. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، دار الأماجد، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٢٩. التسبيح في الكتابة والسنة، محمد إسحاق كندو، دار المنهاج، ٢٠٠٦م.

٣٠. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزري الكلبي أبو القاسم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧م.

٣١. تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

٣٢. التفسير الاقتصادي للقرآن الكريم، د. رفيق يونس المصري، دار القلم، ٢٠١٧م.

تفسير الآية الكريمة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ابن تيمية، الدار السلفية، ٢٠٠٦م.

٣٣. تفسير البدليسي، حسام الدين علي البدليسي، المكتبة الصوفية الشاملة، ٢٠٢٢م.

٣٤. تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٠م.

٣٥. تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٧م.

٣٦. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، ١٩٩٢م.

٣٧. تفسير القرآن الجامع، د. محمد هلال، دار المعارج، ٢٠٢٢م.

٣٨. تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، للشيخ محمد علي طه الدرة، دار ابن كثير، ٢٠١٥م.

٣٩. تفسير القرآن الكريم، محمد بن صالح العثيمين، جار الكتب الثريا للنشر، ٢٠١١م.

٤٠. تفسير القرآن الكريم، محمد راتب النابلسي، ٢٠٢٢م.

٤١. تفسير القرآن بالقرآن، د. طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٢٠م.

٤٢. تفسير القرآن تفسير السمعاني، منصور بن محمد السمعاني، دار الوطن للنشر، ٢٠٠٨م.

٤٣. تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، أبو عبد الله القرطبي، بيروت، لبنان، ١٩٦٥م.

٤٤. التفسير المحرر للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء، الدرر السنية، ٠١٧٢م.

٤٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٤٦. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، دار طوق النجاة، ٢٠٠٧م.

٤٧. تفسير سورة الأنبياء، د. أحمد نوفل.

٤٨. تفسير سورة يونس، د. أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠٠٠م.

٤٩. التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المنهاج، ٢٠١٧م.

٥٠. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري الهروي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٥١. التوبة في ضوء القرآن الكريم، آمال صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٨م.

٥٢. التيسير في التفسير، أبي حفص النسفي، دار اللباب، ٢٠١٩م.

٥٣. التيسير في التفسير، أبي نصر القشيري، كلية الدعوة أصول الدين، ٢٠٠٦م.

٥٤. الثناء في القرآن الكريم، هتون فلمبان، دار ابن حزم، ٢٠١٦م.

٥٥. الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي، دار الرشيد، ٢٠٠٩م.

٥٦. جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، دار الجزري، ٢٠٠٧م.

٥٧. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، ٢٠٠٧م.

٥٨. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحي، دار القلم، دمشق، ٢٠٢٢م.

٥٩. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، ١٩٧١م.

٦٠. دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ٩٨٨١م.

٦١. دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الألمعي، دار الميمان للنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.

٦٢. الدروس المستفادة من القصص القرآني، نصرة إبراهيم، دار عباد الرحمن، دار البشير، ٢٠٢٣م.

٦٣. دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٩م.

٦٤. دقائق التفسير، ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن، ٢٠٠٧م.

٦٥. دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، عامر محمود القيسي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة، جامعة العلوم الإسلامية، الأردن، ٢٠١٥م.

٦٦. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

٦٧. رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧م.

٦٨. رقائق القرآن، إبراهيم السكران، دار الحضارة، ٢٠١٤م.

٦٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ه.

٧٠. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، دار ابن حزم، ٢٠٠٩م.

٧١. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ٠١٥٢م.

٧٢. زهرة التفاسير أبو زهرة، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٧٣. سلسة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ٢٠٠٦م.

٧٤. سلسلة أركان الإيمان، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٥م.

٧٥. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار التأصيل، ٠٠٦٢م.

٧٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط١، ١٣٨٨هـ.

٧٧. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م.

٧٨. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د. شريف الخطيب، الدار العثمانية، ٢٠٠٤م.

٧٩. سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٨٠. السيرة النبوية الصحيحة أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، ٢٠١٣م.

٨١. السيرة النبوية، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن هشام. دار الصحابة للتراث، طنطا، ٢٠٠٧م.

٨٢. السيرة النبوية، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٠م.

٨٣. شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل الهراس، دار الهجرة، ٢٠١٨م.

٨٤. شرح المقاصد، الإمام مسعود بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، عالم الكتب، ١٦٢م.

٨٥. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

٨٦. الشرك القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، مكتبة الرشد، ٢٠٠٥م.

٨٧. الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، ٢٠١٠م.

٨٨. صحيح البخاري، دار ابن كثير، محمد بن إسماعيل، البخاري، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

٨٩. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

٩٠. صحيح قصص القرآن، حامد أحمد البسيوني، دار الإرشاد، ٢٠٠٥م.

٩١. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

٩٢. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن تيمية، دار عطاءات العلم للنشر، ٢٠٢١م.

٩٣. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٩٤. العبر في أحسن القصص وروائع السير، د. ناصر أحمد محمد الغامدي، دار طيبة الخضراء، ٢٠١٥م.

٩٥. العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، طيبة الدمشقية للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.

٩٦. العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد، مكتبة الرشد، ٢٠١٥م.

٩٧. العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، سوريا، ٢٠١٣م.

٩٨. العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، ١٩٩٦م.

٩٩. العقيدة الواسطية، ابن تيمية، مؤسسة الدرر السنية، ٢٠١٢م.

١٠٠. العقيدة في الله، عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة ١٢، ١٩٩٩م.

١٠١. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ١٣٢٠م.

١٠٢. فبهداهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

١٠٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٠٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن القنوجي، المكتبة العصرية، ٢٠٠٨م.

١٠٥. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي، دار الجيل، ٢٠١٦م.

١٠٦. في صحبة الرسل الكرام، السيد عبد المقصود، دار البشير للثقافة والنشر، ٢٠٢٠م.

١٠٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

١٠٨. في قصصهم عبرة، سعيد القاضي، العالمية، ٢٠١٤م.

١٠٩. قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، ابن تيمية، أضواء السلف، ٢٠٠٢م.

١١٠. القرآن علمني، عبد العظيم بدر الدين عرنوس، دار حنين للنشر، ٢٠٢٢م.

١١١. قصة بدء الخلق وخلق سيدنا آدم، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ٢٠٢٠م.

١١٢. القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١، ١٩٠٥م.

١١٣. قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، مصطفى العدوي، دار بلنسية، ٢٠١٢م.

١١٤. قصص الأنبياء أحداثها وعبرها، محمد الفقي، مكتبة وهبة، ١٩٨٩م.

١١٥. قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، دار المعارف، ٢٠٠٧م.

١١٦. قصص الأنبياء: نوح ويونس عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: دراسة موضوعية مقارنة، محمد إبراهيم العروقي، رسالة لنيل درجة ماجستير، ٢٠١٩م.

١١٧. قصص الأنبياء، سميح عاطف، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ط٧، ٢٠٠٥م.

١١٨. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، ٢٠١٩م.

١١٩. قصص الحيوان في القرآن، د. خالد الزواوي، مؤسسة حورس الدولية، ٢٠١١م.

١٢٠. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.

١٢١. قصص القرآن الكريم، محمد أحمد جاد المولى، دار الجيل، بيروت، ٢٠١١م.

١٢٢. القصص القرآني، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٢٣. قصص لا تليق بالأنبياء، طارق اللحام، شركة دار المشايع، ط٤، ٢٠٢٠م.

١٢٤. الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الأثير)، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٩م.

١٢٥. لباب التفسير، محمود الكرماني، دار اللباب، ٢٠٢٢م.

١٢٦. مبادئ الإسلام أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، ٢٠١٧م.

١٢٧. مجالس التفسير، محمد عياش، دار نشر جامعة قطر، ٢٠١٩م.

١٢٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٢٩. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، ٢٠٠٦م.

١٣٠. المختصر في أخبار البشر، عماد الدين إسماعيل ابن علي المعروف بأبي الفدا، دار المعارف، القاهر، مصر، ط١، ٠٨٢٠م.

١٣١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.

١٣٢. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م.

١٣٣. مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني، مدار الوطن للنشر، ط١، ١٩٠٠م.

١٣٤. مستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

١٣٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.

١٣٦. مصنف ابن أبي شيبة، دار الرشد، الرياض، ط١، ١٩٨٩م.

١٣٧. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، كتاب من قبل شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣٨. مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، د. محمد أبو فارس، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ٢٠١٥م.

١٣٩. مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠١٨م.

١٤٠. مع الله، سلمان العودة، الإسلاك اليوم للإنتاج والنشر، ط٥، ٢٠١٠م.

١٤١. معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، دار ابن الجوزي، ٢٠٠٩م.

١٤٢. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج، عالم الكتب، ٢٠٠٧م.

١٤٣. معجزات الأنبياء بين العقل والعلم، محمد الصادق عرجون، مطبعة دار نشر الثقافة، ١٩٥٥م.

١٤٤. معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، محمد الغاني، دار اللؤلؤة، ط١، ٢٠٢٠م.

١٤٥. المعجم الكبير (معجم الطبراني)، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهر، مصر، ط٣، ٢٠٠٧م.

١٤٦. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة بريل، ٢٤٢٠م.

١٤٧. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الفكر، ٧٩١٩م.

١٤٨. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م.

١٤٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩٦م.

١٥٠. مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط.

١٥١. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ٢٠٢١م.

١٥٢. من أنباء القرى، د. أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٧م.

١٥٣. من آيات الإعجاز العلمي والإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، دار المعرفة، ٢٠١٤م.

١٥٤. من سنن الله في عباده، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، ٢٠١١م.

١٥٥. منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الأمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٥٦. منهل الأولياء ومشرب الأصفياء، محمد أمين العمري، ١٢٠١هـ.

١٥٧. منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، ياسين بن خير الله الخطيب العمري، مطبعة الهدف، الموصل، ط١، ٥٥١٩م.

١٥٨. موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

١٥٩. النبوات في تفسير القرطبي، سعيد بدهان، دار الكتب العلمية، ٢٠٢٣م.

١٦٠. النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٦م.

١٦١. النبوة والأنبياء دراسة تفصيلية لحياة الرسل الكرام ودعوتهم وأثرهم في تغيير مفاهيم البشر بأسلوب يجمع بين الدقة والسهولة والجدة والتحقيق، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا، ط٣، ١٩٨٥م.

١٦٢. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير أبو سعادات، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

١٦٣. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، ٢٠١٩م.

١٦٤. الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأكيولوجي، سامي العامري، ٢٠٢١م.

١٦٥. الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، ٢٠٠٦م.

١٦٦. يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في ظل القرآن والسنة، عبد المحسن قاسم الحاج حمو، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في فرع الكتاب والسنّة، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٨٠م.

١٦٧. يونس من وحي القرآن، د. عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، ط١، ٢٠١١م.

فهرس الموضوعات

تقديم أ. د. عقيل حسين عقيل ٥
تقديم عبد الحي يوسف ١١
تقديم أ.د. فضل بن عبد الله مراد ١٣
الإهداء ١٩
مقدمة الكتاب ٢١

المبحث الأوّل

يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **اسمه ونسبه ومكان دعوته، وماذا قالت كتب التاريخ عن ذلك، والسور التي ذكر فيها يونس** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٧
أوّلاً: اسمه ونسبه ومولده ونشأته: ٢٩
١- اسمه ونسبه: ٢٩
٢- يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: مولده ونشأته: ٣٢
٣- بعثته إلى أهل نينوى: ٣٣
أ- الدليل على بعثة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل نينوى: ٣٤
ب- دعوة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ٣٧
٤- حديث أسفار العهد القديم عن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٤٤
أ- تعليق الدكتور محمّد بيومي مهران على سفر يونان: ٤٥
ب- ما قاله الدكتور سامي العامري: ٤٦
ثانيـًا: السور التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٤٨
١- يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في موكب الأنبياء والمرسلين في سورة النساء: ٥٠
٢- يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في موكب الأنبياء والمرسلين في سورة الأنعام: ٥٣

المبحث الثاني

قصّة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **في سورة الصافات** ٥٧
أولاً: **قال تعالى:** ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤١]: ٦٠
١- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ٦٠

٢- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: ٦١
أ- ﴿أَبَقَ﴾: ٦١
ب- ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: ٦٥
٣- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: ٦٦
أ- وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن: ٦٩
ب- وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٧٠
جـ- قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفروق: ٧٠
د- وقال الشيخ عبد العزيز بن مرزوق الطريفي: ٧١
ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٢-١٤٤]: ٧٤
١- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: ٧٤
٢- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. ٨٠
أ- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾: ٨٠
ب- ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: ٨٩
ثالثًا: قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٨]: ٩١
١- ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: ٩١
٢- ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: ٩٣
أ- فوائد اليقطين: ٩٥
ب- اليقطين نبات، فلماذا سمّاه الله في الآية شجرة؟ ٩٦
٣- ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]. ٩٧
أ- ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: ٩٨
ب- ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: ١٠١

المبحث الثالث

قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأنبياء ١٠٩

أوّلاً: قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: ١١٢
١- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: ١١٢
٢- ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾: ١١٥
٣- ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: ١١٧
ثانيـًا: قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: ١١٩
١- ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ١١٩
٢- ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: ١٢٠
أ- فضل كلمة (لا إله إلّا الله): ١٢٤
ب- أفضل الذكر (لا إله إلّا الله): ١٢٧
جـ- التوافق بين (لا إله إلّا الله) و ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: ١٢٨
د- شروط (لا إله إلّا الله): ١٢٩
هـ- ارتباط (لا إله إلّا الله) بالولاء والبراء: ١٣٢
ثالثـًا: قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ١٣٥
١- ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: ١٣٥
أ- صيغة القرآن في التسبيح: ١٣٩
ب- أفضل الكلام عند الله: ١٥٠
٢- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ ١٥٣
رابعـًا: قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]: ١٥٥
١- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾؛ ١٥٥
٢- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾: ١٥٧
٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ١٥٧
خامسـًا: رفع البلاء بالدعاء: ١٥٨
١- دعاء يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اخترق الظلمات وبزغ نور الفرج: ١٦١
٢- القضاء يُردّ بالدعاء: ١٦١
٣- هل يسمّى الذكر دعاء؟ ١٦٢

المبحث الرابع

قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القلم ١٦٣
أوّلاً: قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨]: ١٦٥
١- ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: ١٦٥
٢- ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾: ١٦٦
٣- ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾: ١٦٦
ثانيًا: قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ [القلم: ٤٩]: ... ١٦٧
١- ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: ١٦٨
٢- ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾: ١٦٨
ثالثًا: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]: ١٦٩
١- والاجتباء: ١٦٩
٢- ﴿رَبُّهُۥ﴾: ١٧٠
٣- ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: ١٧٠
رابعًا: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن تفضيل أحد على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٧١
١- التفاضل بين الأنبياء: ١٧٣
٢- الأدب مع يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ١٧٣
٣- مختصر أقوال العلماء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إنّي خير من يونس بن متّى، ونسبه إلى أبيه»: ١٧٤

المبحث الخامس

قصّة قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة يونس ١٧٧
أوّلاً: قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: ١٧٩
١- ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾. ١٧٩
٢- ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: ١٨٠
ثانيًا: قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: ... ١٨١
١- ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾: ١٨١
٢- ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾: ١٨١
٣- ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾: ١٨٢

٤- ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: ١٨٢
ثالثًا: قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾: ١٨٣
رابعًا: تفسير الطبري وابن كثير للآية الكريمة: ١٨٥
١- تفسير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ للآية الكريمة: ١٨٥
٢- تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ للآية الكريمة: ١٨٥
٣- هل رأى قوم يونس العذاب عيانًا؟ ١٨٦
٤- قلّة المستجيبين لدعوة الأنبياء، وأنّه لم توجد قرية آمنت
بكاملها بنبيّهم إلّا قوم يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ١٨٨
٥- سنّة الله في الإيمان: ١٨٩
٦- أسباب نجاة قوم يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ١٩١
خامسًا: أهمّ صفات وخصائص يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ووفاته: ١٩٢
١- تعريف الرسُل وصفاتهم: ١٩٤
أ- تعريف الرسول اصطلاحًا: ١٩٤
ب- هل يُنبّأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟ ١٩٥
جـ- الرسالةُ اصطفاءٌ: ١٩٥
د- الرسول يوحى إليه: ١٩٥
هـ- طريق الوحي: ١٩٦
٢- الفرق بين النبي والرسول: ١٩٧
٣- أهمّ صفات يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ١٩٨
أ- الصدق: ١٩٨
ب- الفطانة: ١٩٩
ج- التبليغ: ١٩٩
د- العصمة: ١٩٩
هـ- مكارم الأخلاق: ٢٠٠
و- الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنفّرة: ٢٠١
٤- الإيمان بالأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ: ٢٠١
٥- أعداد الرسل: ٢٠٢
٦- التفاضل بين الأنبياء والرسل: ٢٠٤

٧- أولو العزم من الرسل: ٢٠٤
٨- حكمة إرسال الرسل عامّة: ٢٠٦
أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة: ٢٠٧
ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية: ٢٠٧
ج- رفع الاختلاف وردّ الناس إلى أصول يتّفقون عليها: ٢٠٧
د- إقامة القسط بين الناس: ٢٠٧
هـ- الأسوة الحسنة: ٢٠٨
٩- وظائف الرسل: ٢٠٩
١٠- أمور تفرّد بها الأنبياء: ٢٠٩
أ- الوحي: ٢٠٩
ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم: ٢١٠
جـ- الأنبياء لا يورِّثون: ٢١١
د- تخيير الأنبياء عند الموت: ٢١٢
هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم: ٢١٢
و- العصمة: ٢١٢
١١- حجّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ووفاته: ٢١٣
أ. الرواية الواردة في ذكر حجّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢١٣
ب- وفاة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ٢١٤
الخلاصة ٢١٧
المصادر والمراجع ٢٢٩
فهرس الموضوعات ٢٤٥

السيرة الذاتية للمؤلف

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القرآن الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القرآن في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤٢. الإيمان باليوم الآخر.

٤٣. الإيمان بالقدر.

٤٤. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٥. الإيمان بالملائكة.

٤٦. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

٤٧. السلطان محمد الفاتح.

٤٨. المعجزة الخالدة.

٤٩. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

٥٠. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥١. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٢. الشورى فريضة إسلامية.

٥٣. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٤. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

٥٥. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٦. العدل في التصور الإسلامي.

٥٧. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٨. الأمير عبد القادر الجزائري.

٥٩. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦٠. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦١. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٢. أعلام التصوف السُني: "ثمانية أجزاء".

٦٣. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٤. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٥. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٦. المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحقيقة الكاملة.

٦٧. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦٨. نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٩. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

٧٠. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله.

٧١. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر.

٧٢. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.

٧٣. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.

٧٤. موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٥. مؤمن آل فرعون في القرآن الكريم.

٧٦. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٧. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب – التداعيات).

٧٨. سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

٧٩. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

٨٠. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.

٨١. ذكريات لا تنسى.

٨٢. "الأنبياء الملوك"؛ داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهيكل سليمان المزعوم..

٨٣. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٨٤. لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.

٨٥. نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب زوال حضارة قوم عاد.

٨٦. نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.

٨٧. الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٨٨. نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ "طريق الشفاء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ".

٨٩. نبيُّ الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ...﴾.

هذا الكتاب

يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة الأنبياء والمرسلين، ومشروعي في القصص القرآني، والتي صدر منها:

موسوعة "نشأة الحضارة الإنسانيّة الأولى وقادتها العِظام؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

- النبيّ الوزير يوسف الصدّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ من الإبتلاء إلى التمكين.
- الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهيكل سليمان المزعوم.
- لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه الظالمين وعقاب الله لهم.
- هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوال حضارة عاد.
- نبي الله أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ "طريق الشفاء ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾".
- نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ...﴾.

وهذه حلقة مهمّة في تاريخ عَلَم من أعلام الإنسانيّة، وشخصيّة عظيمة أكرمها الله بالنبوّة والرسالة، وخلّدها في كتابه العزيز كقدوة وأسوة لبني الإنسان أينما كان، إذ كان من السالكين لطريق الهدى والتقوى والإيمان، وإن إعتراهم الضعف البشري المعتاد من التقصير والذنوب والخطايا، يتعلّمون من سيّدنا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كيفيّة الاستغاثة والدعاء والتضرّع لربّ العالمين، والرجوع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنّ قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ التي جاءت في القرآن الكريم مليئة بالدروس والعبر والفوائد والعظات والسنن والقوانين، وتعطي الناس المنهج الصحيح في التعامل مع الابتلاءات والمحن والمصائب.

وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مقدّمة ومباحث وخلاصة:

المبحث الأوّل: ويشتمل على اسم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ونسبه ومكان دعوته وماذا قالت كتب التاريخ عن ذلك، والسور التي ذُكر فيها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

المبحث الثاني: يتحدّث عن قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الصافّات.

المبحث الثالث: يتكلّم عن قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأنبياء.

المبحث الرابع: يتحدّث عن قصّة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة يونس.

المبحث الخامس: يتحدّث عن قصّة قوم يونس في سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

نسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله نورًا لمن أراد الهداية.

dr.sallabi
dr.ali_alsallabi
alsallabi
alsallabicom
alsallabi1
www.alsallabi.com

ISBN: 978-625-6250-69-7
9 786256 250697
asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari
دار الأصالة